عبد الجليل ولد حموية

صهيل جسد

روايــة



عبد الجليل ولد حموية

صهيل جسد

روايـة

الكتاب : صهيل جسد - رواية
الـمؤلف : عبد الجليل ولد حموية
لوحة الغلاف : الفنان المغربي داني زهير
الناشر : الراصد الوطني للنشر والقراءة
الهاتف : 0662.86.53.58
مطبعة : سليكي أخوين - طنجة
الهاتف : 06.61.17.08.78 - 05.39.32.31.80
الحقوق : محفوظة
الطبعة : الأولى - مارس 2017
الإيداع القانوني : 2017MO1289
الترقيم الدولي : 978-9954-668-15-3

إلى...

المهمشين الذين يحاولون الانبعاث من دخان معاناتهم يوميا...

إلى...

المدمنين على شراب الحياة، المحاولين الانعتاق من عنق زجاجة المعاناة...

إلى...

أبي وأمي لتحملهما جنوني كل هاته السنين.

إلى...

كل الأصدقاء، والمقربين...

1

اتجهت صوب مقعد في ساحة معشوشبة لأتخلص من تعب الركض ودوار الباخرة. لم أعد أشم رائحة الميناء، ولا رائحة كلاب المطاردة المرافقة لحراس المرفأ، لا أعلم لماذا ركضت هاربا منهم وأنا مهاجر قانوني؟ ربما الخوف من أي شيء مرتبط بالعودة إلى الجحيم.

وجود سجن "ألكاتراز" بالمدينة وإن أغلق في الستينات من القرن الماضي، وتحول إلى مزار سياحي، يجعلني أتخيل إعادة فتحه من أجل أن يوضع فيه منحوس مثلي، يجعلني أركض في جميع الاتجاهات كلما شاهدت شرطيا أو سيارة شرطة. موقعه وسط جزيرة جميلة أخذ اسمها، وهي جزيرة "ألكاتراز" القريبة من مدينة سان فرانسيسكو، إلا أنه يعد من أبشع الأشياء الموجودة في ولاية كاليفورنيا، بل وفي الولايات المتحدة الأمريكية كلها.

سجن نسجت حوله العديد من القصص الأسطورية، نظام حراسته المخيف، طرق تعذيب السجناء مرعبة. كان عبارة عن منفى أخير للسجناء المتمردين وذوي محاولات الهروب من السجون الأخرى.

إنه الجحيم الأخير الذي يتمنى المسجون فيه الموت رحمة من عذابه. فكرة الوجود في سجن "ألكاتراز" وحدها كفيلة بالقضاء على السجين، وكسر جناحه وإن كان من أخطر المجرمين.

فكرة الهروب من "ألكاتراز" كانت شبه مستحيلة، بسبب حجم الحراس وانضباطهم ونظام الحراسة المشدد. فرق الحراسة تطوف حول الجزيرة في قوارب لتمنع حتى الأسماك من محاولة الفرار، لن أفكر يوما في زيارة مكان مشؤوم كهذا، حتى لو كان تذكرة عبوري إلى الفردوس.

أحمل معي من الشؤم ما يستطيع إفقار قارة أوربا بأكملها لو فرق عليها، ولست في حاجة إلى إضافة شؤم أرواح السجناء العالقة بين الجدران والأبواب والممرات، التي تنتظر تعيسا مثلي يحملها فوق كاهله طيلة حياته.

فكرة النزول بين أربعة جدران تقتلني أكثر من فكرة السباحة في فوهة بركان نشيط، فوبيا الأماكن المغلقة تملكتني منذ الطفولة. كان السجن طريقة أبي في تقويم سلوك طفل متمرد على سلطته. طفل كان يضرب كل التقاليد والأعراف والأخلاق المصاحبة لها عرض الحائط. سجن أبي، حظيرة صغيرة، يستعملها لعزل العجول عن الأبقار، مملوء بالروث والتبن. إحدى زواياه اختارتها دجاجتنا لتضع بيضها، سقفه القصديري يلمس رأس من يلجه، تسكنه إلى جانب العجول الحديثة الولادة جيوش من الحشرات.

أنا الوحيد ربما فوق الأرض الذي تتجاوز أفكاره أفكار شيطانه في الشر، متحكم في شيطاني إلى درجة يطلب لي الهداية. أثناء فترة

القيلولة الروتينية، فككت وثاق أتانا بعدما تأكدت من نوم الجميع، أخذتها إلى أشجار الزيتون، أحكمت ربط وثاق حوافرها الخلفية مع الأمامية اليسرى لأتفادى الركلات الطائشة، ثم أحضرت صندوقا خشبيا وضعته وراءها.

في سن الرابعة عشر، لم أكن قد بلغت من الطول الذي يخول لي الوقوف خلفها بأريحية تامة. كنت منغمسا في ممارسة فعلتي الشنيعة إلى أن سمعت دوي السوط على جسدي. شعرت كأن أحدا ما رسم خطا من النار وسط ظهري وجزءً من مؤخرتي، التفتت لأجد والدي ماثلا فوق رأسي كبرج إيفل بشاربه الشبيه بشوك الظربان. وقف شارب والدي كأنه سيسدده نحوي إبرة إبرة. ملامح وجهه مكهربة لدرجة تعتقد أن عينيه ستنفجر من شدة الاحمرار:

- لقد تجاوزت كل توقعاتي يا عبدو... كنت أتخيل كل شيء، إلا أن تضاجع الحيوانات. يا إلهي ما الذي فعلته لكي أبتلي بطفل شيطان...؟

- لم أضاجعها، لقد أسأت الظن يا والدي...

- يا إلهي... أتحاول أن تقنعني أن عيني خدعتني...؟ لا لم تكن تضاجعها بل كنت تعلمها إحدى دروس التوالد بين الحيوانات والإنسان... تخيل لو حملت منك سأصبح جدا لحمار، بعدما تحملت أن أكون أبا لحمار رغما عن أنفي...

أرسل ضربة سوط أخرى مباشرة إلى وجهي، دخلت على إثرها في نوبة بكاء هستيرية، كان الألم كبيرا إلى درجة أنني لعنته في مخيلتي وتمنيت له الموت. جرني والدي من رجلي إلى المنزل.

كان المشهد هوليوديا كأنه فارس يحضر خصمه إلى مملكته بعدما صرعه أرضا ليتخذه أسيرا. لم تفلح أمي في ثنيه عن زجي في سجنه.

- ادخل أيها الكلب... عفوا حتى الكلاب لن تجرؤ على اقتراف جرمك. لعنة الله عليك...

- أرجوك امحمد اغفر له، أنت تعرف أن الطفل على مشارف سن المراهقة.

دفع والدي والدتي بعنف. سقطت على ظهرها كحشرة الجعران، ولم تقو على النهوض بعدها.

- أنت السبب، فالناس تلد أطفالا وأنت أنجبت حمارا... لعنة الله عليكما.

كانت آخر جملة سمعتها منه، وأغلق الباب علي. أمضيت خمسة أيام أقتات فيها على بعض وجبات أمي المهربة وبيض الدجاج النيء. أمضي النهار كله أسترق النظر من خلال نافذة تهوية الكوخ، وأتحدث مع العجول والدجاج كالمجنون.

في اليوم الخامس، أفرج عني والدي وكانت آخر مرة أعاقب على مضاجعتي للحيوانات. تركني أبي وشأني بعدما علم أني حالة ميؤوس منها. لم تمض إلا أيام حتى وجدني أضاجع العجلة التي كنت مسجونا في حظيرتها، لتتوالى جرائم اغتصاب الحيوانات بعدها إلى أن أصبحت لصيقة باسمي، فأطلق سكان القرية علي اسم "بوبهايم".

أشعلت النار في سيجارة رديئة كانت الأخيرة في علبة "كازا". كان لزاما أن أتخلص منها، ومن كل الأشياء التي تذكرني بالوطن

المنفى، سأتخلص من اسمي، من ذاتي القديمة، سأتخلص من كل شيء. لكن الشيء الوحيد الذي يؤرق تفكيري هو المسافة التي أصبحت تفصلني عن والدتي. أنا الآن على علم قطعي أنها تعاني قساوة العيش ولوعة فراق ابنها الوحيد. كلما تذكرت دموعها لحظة الوداع إلا وشعرت بغصة وكره اتجاه الجميع، بل حتى اتجاه نفسي. أن تتعذب لغيابي فترة قصيرة أفضل من عذابها طيلة الوقت وأنا بجانبها... كانت هاته الجملة هي مواساتي الوحيدة في عزلتي.

نعيق الغربان في بطني يقاطع زوبعة الأحاسيس التي اجتاحتني فجأة وأنا أتذكر الوطن، أتممت السيجارة البلدية وانطلقت باحثا عن الطعام. لم أكن على علم بثمن الأكل، كان لزاما علي أن أجرب كي أعرف.

ولجت مطعما يبدو متوسط الجودة، يوحي اسمه إلى أكلة أمريكية خالصة، كنت قد سمعت بأنها الأشهر والأرخص هنا. طيلة التهامي الشره للطعام كانت عينا إحدى الشقراوات تراقبني، تبتسم لي كلما تقاطعت نظراتنا. شقراء بشعر ملولب، عيناها تشبهان السماء في زرقتها، فمها جميل يعجز الشعر أمامه، تمرر لسانها فوقه لتجدد لمعانه كلما شعرت أنه قد جف. يا إلهي!!! إذا كانت الفتيات بهذا الجمال، فكيف تبدو الحوريات؟

لم تكن تتناول الطعام، بل كانت تقبله وتدخله في فمها خوفا عليه من آلات جز العشب مثلي. دفعت ثمن الطعام للنادل وشكرته على خدمته، وانطلقت في جولتي الاستكشافية لأرض الأحلام.

كنت أتحرك بصعوبة كبيرة، لم أعتد على وجود كل هذا العدد من الشقراوات في طريقي. حركة الناس كانت غريبة، يتحركون في نظام تكاد لا تشعر بالأعداد الغفيرة من الراجلين. كل شيء هنا يستحق وقفة تأمل. كل الأشياء تبدو لك مبتسمة، الأشجار، الأرصفة، الشوارع، أعمدة الكهرباء والأبنية على غرار عالم الكآبة الذي تركته خلفي.

كنت أتجنب أية دورية شرطة لكي لا أضيع الوقت في الأسئلة الروتينية، فاجأني صوت منبه سيارة، اعتقدت أنها سيارة وزير أو حاكم أو لاعب كرة قدم محترف، لكن سرعان ما تبددت كل الشكوك، لأكتشف أن فتاة المطعم تقترح أن توصلني إلى وجهتي، صعدت إلى السيارة، منحتني قبلة على خدي، شعرت بطاقة غريبة تتحرك داخل جسمي لم أشعر بها منذ أن تركت زوهرة عند شجرة العرعار مصدومة، واضعا حدا لعلاقة دامت أكثر من خمس سنوات، مكره أخوك لا بطل، فكيف لشخص مثلي أن يفكر في الحب، وهو لازال يقاوم الموت ليستنشق بعضا من عبق الحياة.

- اسمي كريستين، وأنت؟

- اسمي عبدو...

- يبدو لي من لكنتك أنك مهاجر حديث العهد هنا.

- نعم لم أضع قدمي إلا هذا اليوم.

- إلى أين وجهتك بالضبط؟

- أبحث عن السعادة... أبحث عن النقود... أحاول أن أولد من جديد.

- امكث معي الليلة وغدا، ثم انطلق في بحثك. ما رأيك؟

لم أكن قادرا على رفض دعوتها بعد تلك القبلة، مررنا في طريقنا على سوق ممتاز، اشترت منه قنينتي نبيذ وبعض الأكل والمكسرات، فهمت من مقتنياتها أن الليلة ستكون حمراء بامتياز.

2

لم نكن مضطرين إلى ولوج شقة كريستين متسللين كما يحدث في بلاد النفاق، في سبت آيت إيكو، نشرب الخمر ونطالب بإغلاق الحانات، نزني ونلهث خلف العاهرات كالكلاب المسعورة ونفرح لخبر هدم ماخور.

أستحضر شروط إحدى الشمطاوات المسترزقات من كراء الشقق بالفيلاج، مستعرضة قانونها النظري أمام وجهي، كأنها قاضي أخلاق يحاضر أمام أحد المجرمين، عند تسليمي مفاتيح "البرتوش" كأنني سأكتريه لغرض الأمداح النبوية. ليغفر لي الرب عدد المرات التي دفعت لها من عرقي السفلي. هي أيضا حصلت على بيتها المهترئ عن طريق عملية نصب على أحد مرتادي جسدها.

في بلدي، نطلق على ممارساتنا الجنسية أسماءً غير أسمائها، نزخرفها بألوان مزيفة، نمنحها صبغة أخلاقية تتماشى وقوانين المجتمع، كيف يعقل أن يتوفر شخص على جيش من الخليلات ويرفض رفضا قاطعا أن تتكلم أخته مع زميل لها في القسم، يحكمنا «مبدأ حلال علينا وحرام عليكم»، نستحضر الإسلام

وشرائعه لخدمة مصلحتنا اللحظية، ونغيبه عندما يتعلق الأمر بشهواتنا وغرائزنا الطبيعية.

انقلبت المفاهيم، همست لنفسي، وكأن الكرة الأرضية غيرت طريقة دورانها، وتخلت الشمس عن الاحتراق من أجل إضاءة الكون، صارت اللحية الطويلة، ضرورة لمن يريد امتهان التجارة، هل طمعا في الربح الإضافي؟ مجتمع التناقضات... أبتسم بسخرية وأنا أستحضر صورة الحجاب على رأس امرأة تطمح للحصول على عريس تحقق من خلاله أحلامها المكبوتة. أستحضر صورة حداثي تعلم بضع جمل بالفرنسية يقذفها في وجوه الآخرين بطريقة عشوائية كلما سنحت له الفرصة. صورة ملحد يهاجم معتقدات المتدين ويستهزئ بها ليلفت النظر إليه. كل الأشياء تغيرت كأن الحياة وصلت إلى نقطة العودة وقررت إعادة نفسها بطريقة عكسية.

- تفضل. تصرف كأن البيت بيتك.

وأشارت بيدها إلى مكان الحمام.

لم أتوان في التخلص من تعب وعرق الرحلة. عند فراغي من الحمام وجدت "كريستين" قد أعدت كل شيء وارتدت ملابس تثير شهوة تمثال "أبو الهول" لو شاهدها. أضواء خافتة حمراء بجانب السرير وطاولة صغيرة وضع عليها النبيذ والمكسرات وشرائح لحم، يعلم الله لأي حيوان، فليكن لحم عنقاء، لماذا أقحم نفسي في التفكير في أمور أنا في غنى عنها؟ كانت الكأس تجري بيننا كجريان الدم في عروق العشاق، مصطدمة ببعض القهقهات في طريقها وبعض الطرائف من هنا وهناك، وانطفأت الأضواء.

أيقظتني الآلام في الصباح الباكر، كانت الصدمة قوية عندما اكتشفت أنني نمت فوق كرسي حديدي في ساحة معشوشبة. أين اختفى السرير الملائكي؟ أين اختفت الحورية الشقراء؟

تخلصت من آثار السكر والنوم بماء أحد المراحيض العمومية، وجلست بإحدى المقاهي لأسترجع ما حصل في تلك الليلة الغامضة، كأن أحد السحرة جرني من السرير ورمى بي إلى الشارع، كأن روح زوهرة اختطفتني لتمنعني من ممارسة الجنس مع شخص آخر غيرها.

نصف فنجان قهوة كان كافيا. هاهي الذاكرة عادت للاشتغال، أطلقت ضحكة هستيرية أثارت انتباه زبائن المقهى، لما تذكرت لحظة اندماجي مع "كريستين" في الحب المشتهى فوق السرير الملائكي، ويدي تتسلل لتخترق صفحات الزمن وتسرع العملية. كانت الصدمة قوية عندما اكتشفت أنني بصدد مضاجعة متحول جنسي، أردت التأكد من الأمر راجيا أن يكون الخمر لعب برأسي، لكن "كريستين" انتفخت في يدي فقطعت الشك باليقين وتوقفت العملية. هربت من بين أحضانها، كأن صاعقة ضربتني أو أنني وضعت يدي على سلك كهربائي عار. هل أنادي ذلك الجسد الأنثوي المثير الذي تتمناه نجمات هوليود بـ«هو» أم أنادي ذلك العضو الكامل الذكورة بـ«هي»؟

تدحرجت إلى الساحة وأمضيت الليلة تحت قمر سان فرانسيسكو لأول مرة. قطعت آلاف الأميال من العراء، عاريا من وطن لا يعترف بي إلا خلال حملاته الانتخابية، إلى عراء وطن آخر يحفه الأمل في التغير.

3

أمضيت اليوم أتنقل بين المحلات التجارية والشركات والمؤسسات باحثا عن عمل. كل ما حصلت عليه هو بعض الأرقام ووعود بالاتصال، ليست هذه الصورة التي رسمتها عن أرض الأحلام. أين الوظيفة المريحة والمنزل الضخم والشقراء المشتهاة منذ زمن بعيد..؟

بدأت الأفكار الانهزامية تسيطر على عقلي، الأفكار نفسها جعلتني أترك خلفي ماضيا أسود، استجمعت قواي وقررت أن ألعب كل أوراقي حتى المحروقة منها، سأخوض المغامرة حتى لو كان الثمن تقديم كل ما أملك قربانا في سبيل الانعتاق من عنق الزجاجة.

ها هو الظلام يتقدم نحوي، منتقما من كل الليالي التي أمضيتها أعاقر الخمر والحشيش في الوطن المنفى. لم أكن معتادا على مدينة بكل هذا العدد المهول من الأضواء. كنت أتنقل بين شوارع سان فرانسيسكو كمرتادي قاعات السينما عندما يخرجون إلى ضوء الشمس.

أين سأبيت الليلة؟

لن أكون قادرا على تحمل قساوة البرد، وأنا غير ثمل. ثمن الغرفة في الفنادق باهض جدا مقارنة مع ما أحمل من النقود في جيبي. لم يبق من حل سوى العودة إلى أحضان الرجل الأنثى. كنت مضطرا للعودة إلى عادتي القديمة مع العجوز الشمطاء، سأدفع لـ"كريستين" أيضا بالجنس. ها هو القدر يسخر مني مرة أخرى، بعدما ظننت أنني وقعت معاهدة صلح معه لما غادرت البلاد.

عدت مهزوما مخبولا إلى شقة "كريستين"، استقبلتني (سأخاطبها بضمير الأنثى لأن ما يظهر منها هو الجانب الأنثوي) بابتسامة، ورحبت بي بحرارة زوجة تستقبل زوجها العائد من ساحة الحرب:

- كنت متأكدة أنك ستعود.

صوت فنان الراي بلال يطرق أذني وهو يردد «جابتني الغلطة وجابوني الهموم»، لم أرجع إليك لسواد عينيك، فلولا قساوة البرد وقلة النقود ما كنت لأفكر يوما أن أمارس الجنس مع حاملة قضيب. قبح الله الفقر! أخذت حماما ساخنا ودخلت الغرفة حيث الطاولة المدججة بالويسكي والجعة وبعض المكسرات، والضوء الأحمر الخافت المثير.

شربت ضعف كمية الليلة السابقة لأنسى أنني بصدد مضاجعة قضيب، وحينما شعرت أنني تناسيته ارتميت في حضن "كريستين"، فتلاشى الجسدان في الجنس، لا صوت يعلو فوق صوت التصفيق، موسيقى آدمية منبعثة من الجسدين المتلاصقين...

لم تستغرق العملية وقتا طويلا، أو ربما استغرقته ولم أشعر بذلك بسبب تأثير الخمر برأسي. نهضت "كريستين" إلى الحمام،

لتتخلص من شوائب ذلك. تبعتها، أعدنا الكرة في الحمام كأننا نقوم بتمثيل فيلم إباحي. كانت "كريستين" محترفة إلى درجة كبيرة، تشبه الممثلات اللائي شاهدتهن في الإنترنت. كنت مغيب الوعي بلا ضمير، بلا حسيب ولا رقيب، أسعى وراء الجنس كما تسعى البقرة خلف العشب.

عدنا إلى السرير، وضعت "كريستين" سيجارة مشتعلة في فمي، وواحدة أخرى في فمها. ساد الصمت لدقائق. وحده صوت نفث الدخان كان يكسره. نتبادل النظرات بين الفينة والأخرى. بدأ مفعول الخمر يزول تدريجيا. الماء البارد قام بعمله. الآن أميز بين الياسمين والبقول. أشعلت "كريستين" سيجارة أخرى، كانت تدخن بشراهة، كأنها تستعد لأن تقوم بخطوة تاريخية. تملكني الخوف في بعض اللحظات، حتى لو غيرت كل أعضائها سيبقى الرجل بداخلها، قد يخرج في أية لحظة ليقتلني. التفتت إلي:

- عبدو...

- نعم...

- تريد أن تعرف قصتي؟

لم أكن لأضيع فرصة سماع قصة مثلي جنسي يحكيها بنفسه.

- إن لم يكن لديك مانع... سأكون ممتنا لك لاختياري كتمان سرك.

كنت أحاول أن أجعل "كريستين" تحكي لي كل التفاصيل الصغيرة. أحاول أن أجعلها تحكي بقلبها لا بلسانها. لكلماتي وقع غريب على وجه "كريستين". تغيرت ملامحها وأصبحت أكثر كآبة. لابد أن هاته الكآبة تجر وراءها قصة غريبة.

- سبق لك أن سمعت بمدينة هونولولو...؟

- لقد قرأت بعض المعلومات حولها عندما كنت في الجامعة. أليست عاصمة ولاية هاواي؟

- نعم، هي بالضبط، من أروع الجزر في العالم. مشهورة بالفنادق الفخمة والأسواق الممتعة والأطعمة المختلفة. تبعد عنا بحوالي ست ساعات بالطائرة. أحب المدن إلى قلبي. مكانها محفور في ذاكرتي...

- ما علاقة هونولولو بـ...؟

- إنها المدينة التي ولدت وترعرعت فيها، إلى حين وقوع ذلك الحادث الذي دفعني لمغادرتها رغما عن أنفي. مازلت أبكي كلما تذكرتها. تركت ذاتي هناك، لم أشعر ولن أشعر يوما أنني أنتمي إلى سان فرانسيسكو، بالرغم من أنها فتحت لي أذرعها عندما رمت بي مدينتي الأم.

- الوطن ليس حيث ولدت، بل حيث شعرت بإنسانيتك.

- نعم... لكنني لم أتمكن من نسيان مدينتي ولا أصدقاء طفولتي ولا عائلتي الصغيرة، بالرغم من أن الجميع تنكر لي يوما ما.

- اختلطت علي الأمور...

اعتدلت جالسا.

- كريستين أعيدي ترتيب أوراقك واحكي لي القصة من البداية...

- سأحاول ذلك...

أخذت "كريستين" سيجارة أخرى وصبت كأسي خمر لنا. كانت تدخن بشراهة وكأنها تتزود بالوقود لتغوص في أعماق الذاكرة والوجدان. استكملت حديثها:

- رأيت النور في إحدى مستشفيات هونولولو. أبي ميكانيكي وأمي موظفة بسيطة. كانت هذه الأسرة البسيطة تنتظر لسنوات طويلة طفلا يكسر روتين الحياة الزوجية، ويعيد ضخ دماء جديدة في الأسرة النووية. يعيد إحياء الحب في قلوب قتلتها العادة. سميت باسم "كريس" تيمنا وشكرا لأعياد الميلاد التي ولدت فيها. عمل والدي طيلة طفولتي على توفير كل ما أحتاجه وما أتمناه. عشت طفولة كالأمراء. في طفولتي لم أكن أتمنى أن أشتغل إحدى المهن التي عرفت باحتكارها من طرف الذكور. كنت أميل إلى الحلاقة ومساحيق التجميل وتصاميم ملابس النساء. كنت أميل إلى الدمى والعرائس... وأمقت المسدسات والسيارات... أكره العنف والقوة والألوان الداكنة وأحب مجالسة الفتيات...

سحبت " كريستين" نفسا طويلا من سيجارتها، ونفثت دخانها في وجهي، كأنها تختبر درجة انتباهي، ثم تابعت:

- كنت طفلا مجتهدا. يشهد له بالأخلاق الحسنة والإنضباط داخل أقسام المدرسة. لازلت أتذكر أنني كنت بعيدا كل البعد عن الألعاب التي تحتوي على صبغة جنسية. في سن السابعة، حاولت أنا وصديق طفولتي مايكل تقليد الكبار، لم تكن لدي الرغبة لمتابعة الأمر إلا أنني أغرمت بقضيب صديقي. تلك كانت أول مرة أجرب فيها الجنس، شعرت بإحساس غريب وأنا أتقمص دور الأنثى... لم أنجح في علاقاتي الأولى مع الفتيات، كنت أجد علاقتي بهن أقرب إلى الصداقة منها إلى علاقة عاطفية... كنت هدفا لكل الفتيات بالمدرسة لوسامتي، وجسمي الرياضي المثالي

مقارنة مع باقي المراهقين الذكور. اعتبرت الفتيات صديقات ولم أستحي الدخول إلى مراحيضهن ولا غرف نومهن، بل كنت أبيت معهن عند تنظيم حفلات النوم، ونتبادل الضرب بالوسائد بدون أن أشعر بأي إثارة جنسية من الاحتكاك بأجسادهن الأنثوية. أذكر احتراقي كلما اقترب مني شاب وسيم، مفرط الرجولة، ولطالما شعرت بالغيرة من أمي لأنها تتمتع بجسد والدي الخشن المثالي الذكورة. استطعت السيطرة على غرائزي الشاذة، في محيط متأثر بالفكر الكنسي الكاثوليكي المتزمت، إلى حين سقطت النقطة التي أفاضت الكأس...

اغرورقت مقلتا " كريستين" كأنها ستمطر دموعا. تدخلت لكي أخفف عنها الضغط.

- إذا كان الأمر يؤلمك، توقفي عن الحكي...

- لا عليك عبدو... فأنا أشعر براحة نفسية كلما أفرغت ما في جعبتي.

- أنا مستعد لأكمل الإنصات... ما الذي حدث بالضبط؟

- في سن السابعة عشر، ضبطت مع مايكل في مراحيض المدرسة نمارس الجنس. اكتشفنا من طرف بعض التلاميذ الذين أبلغوا الإدارة، اجتمعت المدرسة كلها علينا، وانقسموا بين متفق ومعارض. إلا أن الإدارة قررت أن تبلغ والدي بالأمر. انتشر الخبر سريعا في الحي، فاعتبرت شاذا أتعرض لمضايقات المتدينين. سجنت لأيام في غرفتي لأمنع من الخروج. عشت أياما صعبة، بعد ذلك الحادث انقلبت حياتي رأسا على عقب. اضطررت أن أغادر

المدرسة وأن أعتكف في البيت بعدما تجاوزت المضايقات حد المعقول، حتى من أقرب الناس...

- المجتمعات وجدت لتجرد الأفراد من حرياتهم. أليس مفروضا على مجتمع متحرر كأمريكا أن يترك لك حرية التصرف في جسدك كما تشائين يا كريستين؟

- لم أجد أي مشكل مع المجتمع الكبير. بل مع محيطي المتشبع بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية المتزمتة، فلو كنت في منطقة أخرى لمارست حريتي الجنسية كما أريد.

- اكملي يا كريستين ما الذي حصل بعد ذلك؟

- في سن الثامنة عشر، قررت مغادرة هنولولو نهائيا وبلا رجعة. نصحني أحد الأصدقاء بسان فرانسيسكو التي تحتضن الجميع. جئت إلى هنا. حصلت على شهادة في الحلاقة والتجميل، استطعت بواسطتها أن أحصل على قرض افتتحت به صالونا لحلاقة النساء، منه أعيش وأحقق كل رغباتي...

كنت أتأمل جسدها، إنه كامل الأنوثة، كجسد عارضة أزياء، أو نجمة من نجمات هوليود، كيف حصلت على هذا الجسد الأنثوي الرائع؟ كنت أتساءل مع نفسي، عندما انتشلني دخان سيجارة "كريستين" من شرودي، واسترسلت قائلة وكأنها كانت تقرأ ما في داخلي.

- هذا الجسد الذي تشاهده حصلت عليه بواسطة عملية لزرع السيليكون في الأثداء لتأخذ شكلا أنثويا، وعملية تجميل للوجه للتخلص من الملامح الذكورية، ورياضة الأيروبيك والفيتنيس.

كما أنني سأقوم في الصيف القادم بزيارة بانكوك لأقوم بعملية تحويل الجنس.

- تحويل الجنس...! كيف ذلك؟

- سأقوم بالتخلص من هاته اللعنة (أشارت بيدها إلى ما بين فخذيها) وتحويله إلى جهاز تناسلي أنثوي، لأتجنب نظرات الذكور الغريبة كلما نمت في حضن أحدهم.

-ألازلت على اتصال بوالديك؟

- لا، انقطع الاتصال. كنت أراسلهم ولا أتلقى أية أجوبة. هما مجبران على فعل ذلك. كلما تذكرتهما أدخل في هيستيريا من البكاء...

هكذا إذن حتى "كريستين" غريبة في بلدها. لكن على الأقل لديها خيارات أخرى، لم توضع بين المطرقة والسندان مثلي... وضعت المسكينة رأسها على صدري ونامت. أطفأت المصباح الأحمر وتبعتها إلى الموت النسبي.

4

استيقظت قبل "كريستين"، لملمت أغراضي، ارتديت سترتي الجلدية وحذائي الرياضي بسرعة لأهرب من النظر إلى وجه خطيئتي، أغلقت الباب بهدوء، وانسللت خارج الشقة كالثعبان. فاجأني رنين هاتفي وأنا أتناول الفطور بأحد المطاعم.

- مرحبا، من المتصل؟

- هل أنت عبدو الزبلبولي؟

- نعم...

- وجدنا طلبك في أحد مكاتب التشغيل. ألا زالت لديك الرغبة في العمل؟

- نعم لدي، أعطني العنوان وستجدني أمامك في الحال.

أقفلت الخط، دفعت ثمن الفطور، واتجهت كالسهم صوب الانعتاق من الفقر المدقع، راودتني الأحلام الوردية في الطريق مرة أخرى بالفتاة الشقراء والمنزل الفسيح والخمر الراقي، تخيلت والدتي ترتدي ملابس راقية تجعلها تبدو كالوردة وسط نساء القرية.

استقبلتني الكاتبة بترحاب، بادلت ابتسامتي بابتسامة كبيرة، ولم تؤولها كمحاولة تحرش كما تفعل الفتيات عندنا. وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي أجتاز الامتحان الشفوي لولوج الوظيفة. المطلوب هو: تأمين بوابة الشركة، وأخذ المعلومات من الزوار. كنت على استعداد لأقوم بأي شيء مقابل الحصول على تذكرة الهروب من الفقر والعودة إلى هناك، حيث اللاحياة كإنسان، لا كسكير عربيد يضرب به المثل عند الحديث عن الفشل. كان الامتحان سهلا وسلسا: أسئلةٌ في الثقافة العامة، وبعض الأسئلة حول بعض القضايا العالمية.

لكن الرياح جرت وأنا على مشارف الحصول على عمل بما لا أشتهي، كان علي أن أتحمل ذنب الانتماء إلى عالم بصمت على جباه مواطنيه لعنة الـ «إرهابي». دخل أحد الموظفين بالشركة وقاطع أسئلة الممتحنين بتوجيهه السؤال الذي وضع به مسمارا آخر في نعش جثة شخص توفي عندما ولد، وبدد كل الأحلام التي اعتقدت أنها قابلة للتحقق.

- هل أنت عربي مسلم؟

وددت لو كانت لدي القدرة على إنكار هويتي، لكن العطار لا يصلح ما أفسده الدهر. كيف لوجه يحمل ملامح البدو ورعاة الإبل في الصحراء أن ينكر هويته العربية وإن لم يكن عربيا في الأصل؟ عربي أنا، وهذه تهمتي، أجبته بحسرة:

- نعم أنا عربي ومسلم، وإرهابي أيضا، أليس هذا قصدك سيدي من السؤال؟

التفت إلى الممتحنين وأطلق العنان لابتسامة مملوءة بالنصر، النصر على من؟ على مواطن معدم مغلوب على أمره، على شخص يصارع الحياة لينعم بموت إنساني على الأقل، على شخص خسر كل شيء عندما ولد في أرض اغتالت أحلامه وآماله كإنسان.

- ألم أقل لك يا كيفن.. قسمات وجهه واسمه يوحيان أنه من المسلمين.

ألقى بعض الكلمات باللغة العبرية وانصرف. ها هو القدر يلعب لعبته مرة أخرى، علي أن أتحمل أيضا مسؤولية أولئك الأغبياء الذين يفجرون أنفسهم من أجل الظفر بسبعين حورية عذراء، لو نظر سيزيف إلى الأثقال الملقاة على عاتقي لأشفق على حالي ونظر إلى صخرته وقال لها أحبك.

لعنت ذلك الشخص بالدوار الذي أخبرني أن مياه البحر تبطل مفعول السحر واللعنات. عبرت البحر وارتويت منه وتبللت ولم أتخلص من لعنتي بعد، على الأقل هناك، كنت أتقاسمها مع منبوذين مثلي. أما هنا فلا مواساة ولا تعايش، إما أن أكون أو لا أكون.

عدت إلى نقطة البداية بلا عمل ولا مأوى، وعادت الأسئلة إلى ذهني مرة أخرى وبدأ الفشل يجد لنفسه منفذا إلي. هل أعود إلى "كريستين" مرة أخرى؟

5

الجوع، العطش، الرغبة في التدخين، الندم، الشك في كل شيء، اللعنة، دموع الأم، صورة زوهرة، الحزن والكآبة. اختلطت عليّ الأحاسيس والمشاعر، لم أعد أعرفني. الشيء الوحيد الذي أتذكره هو أنني وجدت لأتعذب وأعذب الأشخاص من حولي. لملمت أشلائي مرة أخرى، استجمعت قواي المنعدمة وقررت المواصلة، وهل لدي خيارات أخرى غير محاولة المواصلة إلى أن يقضي الله أمرا كان مقضيا؟

لابد أن أتعايش مع الوضع هنا، الشخص الذي استطاع أن يقاوم وطنا يسعى لاغتياله طيلة ثلاثين عاما، شخص موهوب بالفطرة، موهبته هي القدرة على العيش تحت الصفر، والتشبث بخيوط الدخان من أجل بلوغ الموت كنهاية سعيدة.

قبل أن أحصل على عمل ما، يجب أن أحسن تدبير النقود في جيبي على ندرتها، يجب أن أتخلص من الإفراط في التدخين، والاكتفاء بوجبة واحدة، سأتخلص من تلك المشاعر التي ترهقني دائما بالرغم من صعوبة الأمر. سأحتفظ بحبي لأمي وبعضا

من ذكرياتي مع زوهرة لكي لا أتحول إلى إنسان نصف آلي «سايبورغ». لم يعد لدي الوقت والمال الكافيان لارتشاف القهوة أو التفكير في علاقة جنسية. هذا إن لم أكن مضطرا إلى العودة للدفع بالجنس كما فعلت مع "كريستين"، نعم سأستغل جسدي أيضا للنجاة.

الساعة تشير إلى الثالثة بعد الزوال بتوقيت سان فرانسيسكو، منذ أن تعرضت لذلك الموقف العنصري وأنا متجمد فوق كرسي خشبي بساحة عشبية كتمثال فلاح كئيب يؤرخ للثورة الفرنسية. نهضت لأتمشى قليلا، لعلني أحصل على حل ينسيني ما حدث. أبصرت مسجدا مفتوح الأبواب، لابد أن أقترب منه، لعلني أجد سراجا منيرا في ظلمتي، بالرغم من أنني وسط مدينة كلها أضواء. إنها صلاة العصر، لماذا لا أتوضأ وأقوم بمصالحة الخالق بعدما أعلنت الحرب عليه منذ زمان؟

ولجت المرحاض وكل الأعين تحملق في كأنهم علموا بأنني متطفل قادم من فراش مثلي جنسي. وإن يكن الأمر، فالله وحده من لديه الحق في محاسبتي. لا أحد حصل على توكيل من السماء لمحاسبة الخلق. آخر مرة دخلت فيها مسجدا كان في القرية عندما طردت من البيت، ونمت فيه حتى الصباح، بعدما سمح لي إمام القرية بذلك. توضأت بالرغم من أنني نسيت طريقة الوضوء، لا يهم، النية أبلغ من العمل كما كانت تقول والدتي، أدينا صلاة العصر، شعرت بطمأنينة لم أشعر بها من قبل. حالة من السلام الداخلي، انبعثت الروح داخل ذاتي الدنسة من جديد.

وقفت وسط المسجد لعلني أحصل على من يساعدني. طلبت المساعدة جهرا كأنني لاجئ، رمت به الأقدار بين أيديهم. لكن الجميع افترقوا بسرعة فارين من المسجد كأنني ألقيت بقنبلة. يراوغونني كما يراوغ لاعب كرة القدم خصمه.

الإمام رجل أشيب الشعر، متوسط القامة، ملامحه مبتهجة، يضع عود أراك في فمه، يرتدي جلبابا أنيقا، أبيض اللون كأنه ملاك في صفة بشر، تدل ملامحه أنه على مشارف الستينات من عمره.

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

طريقة رده للسلام مع ابتسامة عريضة منحتني الأمل في أن أطلب منه المساعدة، وأنا أرجو ألا يرفض ذلك.

- تقبل الله صلاتك يا عمي...

- تقبل الله منا ومن جميع الأمة الإسلامية يا بني. لم يسبق لي أن شاهدتك بالمسجد.

- أنا حديث العهد بسان فرانسيسكو.

- هنا يا بني العديد من مغريات الحياة، حاول أن تقبض على دينك، فالقابض عليه في عصرنا كالقابض على الجمر. كما أخبرنا الحبيب عليه أفضل الصلاة والسلام.

- صلى الله عليه وسلم.

كنت على وشك أن أقول له، لماذا لا تغادر أمريكا إلى السعودية حيث اللامنكر في الشارع؟ لكنني لم أكن في موقع يسمح لي بأن أستعمل فلسفتي الخاوية كما يقول القرويون... لم أكن في موقع

يسمح لي أن أناقش أو أبدي رأيي، كنت في حالة لا أستطيع فيها إلا تحريك رأسي موافقا على ما أسمع.

- من أي بلد أنت؟

- من المغرب، من قرية آيت إيكو بالخميسات.

- أنا مغربي أيضا من مدينة فاس.

توقف عن الكلام ثم استرسل قائلا:

- الحمد لله يا بني أن الشباب مثلك لا ينصاعون وراء شهواتهم، ويحافظون على صلواتهم.

- نعم يا عمي، الحمد لله على نعمة الإسلام. قصدت المسجد وكلي أمل في أن أحصل على يد العون في محنتي. لقد صرت بلا مأوى يا سيدي الإمام. ولم أجد إلا بيت الله لكي أطلب من إخوتي المساعدة.

تحول الملاك العجوز إلى شيطان. تغيرت ملامح الرجل، تحول فجأة إلى وجه شاحب، مكهرب، عيناه غادرتا مكانهما كأنهما تريدان أن تنفجرا في وجهي.

- أتقصد أنك تريد أن تمكث في المسجد؟ أم تريدني أن آخذك إلى منزلي؟ أمجنون أنت؟ كل من قطرت به السماء يقصد المسجد... وما أدراني أنك لست أحد أولئك الإرهابيين المندسين وسط المسلمين لتلويث العقول؟ وجهك لا يبشر بالخير. لابد أنك صهيوني تتقمص التقية لتعرف أسرار المسلمين... اذهب إلى مركز الشرطة واطلب منهم أن يعيدوك إلى بلدك. لعنة الله على اليوم الذي عرفتك فيه. اتفففففووووووووو...

دفعني الإمام بيده وعاد إلى المسجد. لماذا كل هذا الشقاء يا رب؟ تحملت أخطاء الجماعات الإسلامية المتطرفة في الامتحان ويجب أن أتحمل جرائم الصهاينة والعداوة الأزلية. أليس هذا بيتك يا رب؟ ألم أقصده طلبا للستر فقط؟ ألم أحاول أن أصلح العلاقة معك...؟ وطردت من طرف عبدك ككلب أجرب.

عدت مرة أخرى إلى حالة التيه. كان وقع كلمات الإمام كسيف ينخر ذاتي المشتتة. لم أكن أتوقع أن يتنكر لي أبناء جلدتي، وأين؟ في بيت الله؟ لو قصدت حانة ما كنت لأطرد كما حصل الآن. إن "كريستين" أكثر إنسانية ورحمة من إمام المسجد، وإنها أحق بالجنة من ذلك الشيطان المتنكر في زي الملائكة.

الحادث أنعش في ذهني كل مظاهر النفاق التي عرفتها في حياتي. أنعش الصورة السوداء التي رسمتها منذ كنت طالبا في الجامعة، حول التيارات الدينية التي درست الدين في كتب مقلوبة، حول الفتاوى الشاذة والقنوات الفضائية التي تطالب بمقاطعة منتوجات اليهود وتسوق لهم...

أسترجع أيامي الأولى في الجامعة، كنت تائها كسمكة بورية ألقت بها الأقدار وسط محيط شاسع، وسط فضاء جديد يحتم عليك الانتقال من عالم الثانوية إلى عالم الجامعة، الانتقال من التلميذ إلى الطالب الذي ينتظر منه المجتمع حمل مشعل الثقافة مستقبلا. أنظر إلى الفصائل الطلابية نظرة إنسان عادي، إلى شخص ثمل بالمبادئ والقيم والشعارات الثورية التي لا يفهم منها إلا ما أرادته الأيادي الخفية التي تتحكم في الجامعة من بعيد، كم أكره الاصطفاف وراء القطيع.

أستحضر الإغراءات التي كنت أتعرض لها مرارا وتكرارا من طرف الرفاق، فطالب الفلسفة يعتبر حامل مشعل الفصائل اليسارية ووريثها. فوجئت برشيد ابن القرية في المقهى الجامعي، رشيد القروي الذي ترك القرية منذ سنوات ولم يكلف نفسه عناء العودة لتفقد حال والديه. تغير كثيرا، ملامحه البريئة تحولت إلى ملامح سكير بشارب طويل ولحية مجعدة، تحول إلى كبة من الشعر المجعد مرتدية وشاحا يرمز إلى القضية الفلسطينية. لم يسألني عن أحوال قرية تركها منذ سنوات، بل استغل ذكريات طفولتنا لدعوتي للانضمام إلى صفوف الرفاق. لا فرق بين رشيد ابن قرية آيت إيكو وبين الآخرين، كلهم يسعون وراء هدف واحد، هو مضاعفة حجم القطيع.

- كيف تحول رشيد إلى طالب ماركسي..؟!

كنت أتساءل مع نفسي، وهو الذي كان متسكعا في قريتنا الصغيرة، لا شغل له سوى اعتراض سبيل الفتيات عند عودتهن من «العوينة» الوحيدة الموجودة أسفل التلة، وهاهو الآن يطلق العنان للحيته المجعدة، يثرثر بأفكار وشعارات أكبر من حجمه، يسعى إلى تدجين الطلبة الجدد، من أجل مضاعفة أعداد القطيع. هل يستحق ذلك أن يهدر سبع سنوات من عمره في الإجازة؟ من أجل تكريس مفاهيم مغلوطة عن القيم اليسارية، التي أسيلت الدماء وراء الأسوار الجامعية من أجل الدفاع عنها، كم يضايقني تقزيم هذه القيم وحصرها في الجنس والخمر وتدخين التبغ الرديء...

توقفت ذاكرتي عند أكثر المشاهد تناقضا وغرابة، ماركس وابن تيمية قررا الاتفاق على محاربتي، ونادرا ما يتفق الرفاق والإخوة

حول قضية ما. ألم أخبركم أن الشؤم يرافقني أينما حللت، والظروف تتكالب علي مذ جئت لهذا العالم، فكيف لا يتحد علي فصيلين متناحرين. قبلة مسروقة من شفاه زميلة، كانت وراء الاتحاد المبارك، ما كدت أنغمس فيها بكل جوارحي حتى اجتمع علي نفر مختلط من الرفاق والإخوة كأنني حرمتهم من المنحة الجامعية.

صعدت فوق السور الخارجي للجامعة حاملا في يدي صخرتين. أتوعد وأحذر الطلبة من الاقتراب مني بلغة الشارع. خطة التهديد نجحت، لم يقوَ الطلبة على الاقتراب مني. تدخل رشيد لفض النزاع غير المتكافئ، وعتق رقبتي من محاكمة جماهيرية.

هل كان على رشيد إخبارهم بأنني أحد الرفاق الجدد؟ لأنجو من غضبهم، فهمت متأخرا بأن القبل محرمة على الطلبة العاديين فقط. بقي الحادث يشغل تفكيري لأيام عدة، إلى أن لمحت أحد الطلبة الإسلاميين يلتهم أختا له في ركن وراء المدرجات. ألقيت السلام عليهما بطريقة سنية كأنني شيخ سعودي من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ما كنت لأضيع فرصة الانتقام وإشفاء الغليل، إنه أحد المطالبين برأسي يوم القبلة. بدأت الألوان تتراقص في وجهه، اختفت الطالبة في حجابها كالسلحفاة، وتحاشت النظر في وجهي. ضحكت بصوت عال ولم أنطق إلا بجملة واحدة: «إن الله يشاهدك أيضا»... هو نموذج مصغر لأولئك الشيوخ المنافقين، الذين يسرقون دنيا الناس بجنة الآخرة.

- الرفاق كالإخوة. كل واحد يجذبك إلى جانبه خدمة لعالمه الخاص.

كنت أردد في أعماقي وأنا أطرد شبح الذكرى.

بدأ الكرسي الخشبي يسبب لي الألم، فمنذ صلاة العصر وأنا مسمر في مكاني لم أبارحه، أتجول بمخيلتي، أعيد شريط حياتي، أسئلة كثيرة تطرح نفسها الآن. نظرت أمامي فوجدت بعض القطع النقدية، وضعها المارة معتقدين أنني متشرد، التقطتها وتحركت من مكاني... اتجهت إلى مخدع هاتفي وطلبت "كريستين" لعلها تنقذني من دوامة الأفكار القاتلة هاته، لأول مرة أنظر إليها كمنقذ، كصديق، ركبنا السيارة واتجهنا إلى المطعم لتناول وجبة الغذاء.

- لماذا اخترت الاختفاء بطريقة غريبة.

- لم أشأ أن أوقظك صباحا.

اضطررت إلى الكذب حتى لا أخبرها الحقيقة الجارحة، التهمت الطعام بشراهة، كأنني أحد المعتقلين الفارين من سجن "أبو غريب". اتجهنا صوب الشقة. أخذت حماما ساخنا، ثم ارتديت بدلة رجالية. لم أتكبد العناء لأسأل عن سبب احتفاظها بملابس رجالية في شقتها. ارتدت هي الأخرى ملابس مثيرة استنتجت من خلالها أننا بصدد التوجه إلى سهرة راقصة.

- كريستين، هل يمكن أن أسال عن وجهتنا؟

- أريد أن أعرفك على بعض الأصدقاء، سيعجبك الأمر أقسم لك بربك...

أتبعت القَسم بضحكة رنانة.

توجهنا إلى حانة صغيرة، لا تشبه حانات بلدي إلا في الاسم. هنا لا أحد يعربد ولا رائحة الخمر النتنة المنتشرة في كل مكان، لا

وجوه كئيبة تشرب الخمر بهمجية كأنها تريد أن تفرغ الحانة منه، كل شيء مرتب. كراسي تكتسي جماليتها من نظافتها وتناسقها مع طلاء الحانة الداخلي. فرقة موسيقية تتكون من أربعة أفراد يعزفون موسيقى هادئة، رومانسية تبث الحب في قلوب الموتى. مزهريات ضخمة وضعت في أركان الحانة، تحمل زهورا طبيعية رائحتها تحف المكان كله. الخمار شاب لا تفارق البسمة ثغره.

تذكرت العربي الخمار بحانة المدينة، ذلك الرجل المدمن على المخدرات، أشعث الشعر، كئيب الملامح، لا يفتح فمه إلا ليسب الزبائن والعالم والرب، كأنه يسكب لك من دم أمه. تذكرت الحانة الكئيبة بالمدينة ورائحة القيء والخمر المسكوب أرضا، والمشاجرات التي لا تنتهي. تذكرت كيف تغلق الحانة أبوابها أحيانا ليتوجه الجميع إلى قسم الشرطة. لا مجال للمقارنة، وكأنني أقارن عالم المثل بالعالم الواقعي. كل شيء هنا يغري بأن تحتسي كأسا أو كأسين حتى لو كنت ناسكا متعبدا، أحضرت ''كريستين'' قنينتي جعة ناولتني واحدة واتجهنا صوب طاولة أصدقائها.

6

طاولة خشبية دائرية، ذهبية اللون، تتوسطها قنينة ويسكي "شيفاس ريغال" وسط دلو معدني صغير، مملوء بالثلج، تحفها من الجوانب قنينات جعة من نوع "بيدويزر" أغلبها مفتوح، وبعض قطع الليمون ورقائق البطاطس موضوعة وسط أربعة صحون بديعة، وعلب سجائر منثورة فوقها بعبثية.

يلتف حول الطاولة فتاتان وشابان، تجلس كل فتاة بجانب أخرى، ويجلس الشاب بجانب صديقه، كان الشاب يتوسد صدر الشاب الآخر. بل يضع رأسه وسط غابة الشعر الآدمية تلك.. ألقيت التحية عليهم، وجلست قرب "كريستين" وهي تقدمني إليهم.

- هذا صديقي عبدو من المغرب، أحد الموتى الذين يحاولون الانبعاث من الرماد. رجل كئيب يجيد ممارسة الجنس.

- لا بد أن أجربه.

قال الشاب المتوسد لغابة الشعر، مقاطعا تقديم "كريستين"، استغربت رغبته الشاذة في مضاجعتي بذلك الشارب الذي يشبه خط الاستواء. وقفت إحدى الفتيات وقدمت نفسها وباقي المجموعة،

ما أثارني في تقديمها هو اسم خالد، الشاب الذي يتوسده صاحب الشارب، لابد أنه عربي يحاول الانبعاث من الرماد مثلي أو انبعث منه وبلغ بر الأمان، لكن ما سر امتهانه لمهنة الوسادة؟ سؤال ساذج راودني لثوان، «كل شيء مباح في أمريكا» كنت أجيب نفسي، إلى أن قطعت شرودي "إيميليا" الفتاة التي قدمت لي الآخرين.

ناولتني كأسا من الويسكي، وعادت لتجلس، متعثرة بشفاه ملائكية وجدتها تقدم لها قبلة شبقية على طبق من حب خالص. كانت "مايلي" صاحبة الشفاه المثيرة أجمل من "إيميليا". عندما وقع نظري عليها شعرت برعشة تدب في جسدي المنهك. فتاة أوربية الملامح تكاد تشاهد أوردتها الدموية من خلال لحمها الشفاف.

شربت كأس الويسكي على عجل، وطلبت من "كريستين" أن تعيد ملأه. لم يكن المشهد اعتياديا بالنسبة لي، بالرغم من أنني أمضيت ليلتين في حضن "كريستين". شعرت بشيء يشبه الغيرة اتجاه "إيميليا"، ولعنت حظي التعس، متى سأحظى بتقبيل أهلة مثل تلك المرسومة فوق فم "مايلي"؟ ربما أموت فرحا لو حصل ذلك يوما ما، ما الذي يوجد فوق هاته الكرة الأرضية يغري بالعيش بعد التلذذ بمثل تلك الشفاه؟

تذكرت أحد السكارى الشيوخ المتقاعدين بسبب تحذيرات الأطباء عندما همس لي يوما:

- أتعرف يا ابني عبدو لو حظيت يوما بمضاجعة فتاة شقراء من فتيات أمريكا الجميلات اللائي يظهرن في أفلام الويسترن... ماذا سأفعل؟ سآخذ معي -قبلها- مسدسا محشوا بالرصاص، ما إن أنتهي

من العملية حتى أفرغه كاملا في رأسي. لا شيء يستحق بعد ذلك الحياة من أجله.

ناولني خالد وسادة الشعر الآدمية جعة وهمس في أذني:

- ستعتاد ذلك يا ابن بلدي.

- أنت مغربي إذن؟

- وهل هناك ألماني يحمل اسم خالد بهذه الملامح؟ نحن فقط من نحمل هاته اللعنة... عربي أنا، وهذه تهمتي...

دخلت أنا وخالد في نوبة هستيرية من الضحك أمام اندهاش المجموعة لجهلهم سبب ذلك.

- إياك أن تفكر في خطف حبيبي خالد مني، سأقتلك، بعد أن أمارس الجنس معك.

هكذا اختار "خوليو" صديق خالد الأمريكي اللاتيني الملامح، ممازحتي بعد انخفاض نوبة الضحك شيئا ما. من الأحمق الذي سيفكر في أن ينام مع كبة الشعر تلك. سحب "خوليو" خالد إليه في مشهد سريالي، واضعا شاربه الكثيف فوق فم خالد. مشهد حب أشاهده لأول مرة أمام عيني، جسدان خشنان يقبلان بعضهما البعض، لطالما تجنبت مشاهد الجنس بين الذكور، أثناء تصفحي لمواقع الجنس على الأنترنت.

تذكرت ذلك اليوم التعس، عندما كنت أشاهد موقعا إباحيا، ناسيا وضع السماعات في الجهاز. فانطلق صوت الفتاة وهي تصرخ إلى آذان كل مرتادي المقهى، فأرغمتني عاملة المقهى على مغادرته مع وابل من السب والشتم والدروس الأخلاقية المجانية، بالرغم من أنها من مرتادي الشقق المفروشة.

شعرت بالغثيان من كثرة تركيزي في حركات شفاه خالد و"خوليو". أعترف أنني أجد مشهد تقبيل رجل لرجل غريبا، إلا أن إيماني بالحرية الفردية التي حاول سكان القرية مرارا سلبها مني يجعلني أحترمهم وأعتبرهم بشرا مثلنا. أنا أيضا نظرت إليهم نظرة تحقيرية يوما ما واعتبرتهم شواذا. مازلت أحتفظ في ذاكرتي بالحوار الذي بلغني وأنا أسترق السمع خلف كومة التبن، وكأنه حدث بالأمس وليس منذ سنوات عدة، كان أبي يقول لجارنا وهو يلتفت وراءه خوفا من أن يسمعه أحد:

- ألم تسمع أن ابن الحاج الشرقي ضبط بالمدينة متلبسا بممارسة الجنس مع أحد أبناء المدينة؟

هكذا حاول والدي زف الخبر إلى جارنا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله... من أين سأسمع بخبر مشين كهذا؟

- لقد أخبرني صاحب الدكان في الصباح بذلك، هو الآن في الحراسة النظرية ينتظر المحاكمة.

- لعنة الله عليه، كنت أعلم أن حركاته الأنثوية تخفي من ورائها أشياء ملعونة.

- مسكين الحاج الشرقي انتظر لسنوات ليرزق بشبه رجل، لا هو ذكر ولا هو أنثى...

سكت والدي لثوان، وأضاف:

- إنها جريمة تزعزع عرش الرحمان كما أخبرنا فقيه المسجد، تلعنه الملائكة إلى يوم الدين، يقولون إنها حرمت في جميع الديانات السماوية...

كان لذلك الحوار تأثير كبير على قناعاتي الأولى حول موضوع المثلية، اعتبرتها شذوذا إلى أن التقيت بصديق أعجبت بمواقفه الرجولية، لأكتشف في الأخير أنه مثلي الجنس. استغربت كثيرا لأن كل حركاته وتصرفاته تنم عن أنه رجل عادي واستبعدت فكرة أنه مثلي نهائيا. أخبرته بذلك فأكد لي الخبر وطلب مني أن أبحث قليلا في الموضوع بمساعدة منه، لكي لا أبقى منحصرا في فكرة الشذوذ التي كونتها في القرية، وأنا أتساءل: لم ينظر المجتمع إلى المثليين نظرة تهميش وتحقير؟ إنهم أناس عاديون مثلنا. لم لا ينظرون إلى الإنسان قبل التفكير في ميولاته الجنسية؟

احتسيت كأس ويسكي آخر، وقنينة جعة كأنني أشرب اللبن محاولا قتل المنطق في عقلي لكي أستطيع تقبل المشاهد الجنسية الغريبة أمامي، استرسلت في الشرب كأنني أسابق الزمن. بدأت أشعر بأنني أخرج مني، أشعر بحركة الأرض حول نفسها، كأن الخمر خفض من تأثير الجاذبية على جسدي، كل ما أتذكره هو أنني نمت في الحانة بين شفتي "كريستين" و"مايلي" تقول:

- لابد أنه ليس معتادا على احتساء الويسكي، مسكين صديقك يا كريستين!

7

استيقظت على صوت ضحكات أنثوية منبعثة من مطبخ ''كريستين''، كيف وصلت إلى السرير؟ لماذا أشعر بكل هذا العدد من الكدمات على جسدي؟ أكنت أشرب الويسكي أم عصير قنابل؟

الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد الزوال، كيف أنام كل هذا الوقت معتقدا أنني قد غفوت لثوان فقط في الحانة، صدق من قال: «إن النوم أخو الموت»، بل إنه موت نسبي. إن كان الأشخاص مثلي لا تسري عليهم هاته القاعدة فلقد قضينا نحبنا منذ أن ولدنا. ربما أخطأ أباؤنا في عد أيام الإباضة، فخرجنا إلى المجتمع دون أي ترحيب أو رغبة من أحد. نحن المنبوذون بدون أي جرم اقترفناه في حق أحد ما. تهمتنا الوحيدة أننا تشبثنا بالأمل يوما ما، كل هاته الأفكار تسببت فيها آثار ما بعد السكر.

دخلت علي ''كريستين'' و''مايلي'' مقاطعتين دوامة التفكير تلك:

- وأخيرا استيقظ البطل.

قالت ''كريستين'' موجهة كلامها إلى ''مايلي'' وإلي في نفس الوقت:

- إياك أن تحتسي الخمر مستقبلا وإلا ستجد نفسك مرميا في أحد السجون، أو عائدا إلى وطنك.

أطلقت الفتاتان العنان لضحكتيهما مرة أخرى. كان وقع الضحك ينزل على رأسي كالرصاص بسبب الثمالة العالقة فيه، وكثرة النوم والكدمات التي أجهلها إلى حد اللحظةّ. تقبلت فكرة أن الخمر هو السبب، وأحمد الله أنهم لم يعلموا أن مشهد التقبيل ذلك هو السبب في شربي بتلك الطريقة الهمجية. لو شربت الفتاتان كأسا من ماحيا القرية لدخلتا في غيبوبة طويلة.

- كريستين من أين أتت هاته الضمادة على رأسي؟ ولماذا أشعر أن عيني اليسرى منغلقة لا أكاد أبصر بها؟

- لابد أن الخمر مسح ذاكرتك.

- لا أتذكر سوى أنني نمت فوق شفتيك، وآخر شيء سمعته هو جملة نطقت بها مايلي.

- لقد غفوت للحظات واستيقظت من جديد. أسرفت في الشرب بالرغم من تحذيري لك، لكن النقطة التي أفاضت الكأس هي عندما نهضت لترقص مع "مايلي" ترنحت وترنحت... لتسقط خائر القوى فوق ثديي صديقة أحد زعماء المافيا، فما كان منه إلا أن دفعك بعنف. لم تستسغ ذلك ودخلت معه في عراك وتدخل أصدقاؤه، لقد أبرحوك ضربا، لولا تدخل "خوليو" ومعرفته المسبقة بهم لكنت الآن رقما في سجل وفيات المهاجرين، حملتك أنا والأصدقاء إلى الشقة، وقامت "إيميليا" بتضميد جراحك. لكن ما أثار دهشتي فيك يا عبدو هو أنك طريح الأرض، مهدود القوة

وتسب فيهم وتلعن وتريد أن تعود إليهم لإتمام العراك، وأنت لا تقوى لحظتها حتى على قتل ذبابة.

توقفت عن الكلام وأطلقت ضحكة قوية غير آبهة بآلام الرأس التي أعاني منها إلى أن قاطعهما صوت الطرق على الباب.

- من الطارق؟

- افتحي أيتها العاهرة، أنا خوليو...

دخل خالد و"خوليو" ليطمئنا على حالي، شعرت لأول مرة بأنني إنسان. أنا الذي اعتدت في بلدي أن أمرض وأصحو ولا أحد يزورني غير تضامن أمي الطبيعي مع ابنها المنكوب. استحضرت ذلك المشهد الدرامي بجانب كومة القش في بلادي عندما أفرطت في الشرب، وسقطت ولاعتي وأنا أحاول إشعال السيجارة في القش، والتهبت الكومة نارا.

سكان القرية اهتموا بإطفاء النار، ولا أحد اطمأن على حالي، بل تلقيت وابلا من السب والشتم باعتباري سكيرا عربيدا يجب أن يدفن حيا، كأنني أضرمت النار في كومة القش عمدا ما عدا كلبنا الذي استغل الفرصة وأشبع رغبته في لعق وجهي، وأنا ممدد فوق بركة من القيء الممزوج بالخمر الرديء، زوهرة أيضا تنكرت لي لحظتها خوفا من والديها وأفواه القرويين التي تفتح فقط لأكل لحم البشر، لكنها مكرهة لا بطلة. لو كنت مكانها ما كنت لأقبل بشخص مثلي حبيبا، سكير، مدمن حشيش، ناكح حيوانات، منحوس يتشاءم من ذكر اسمه الصغير والكبير، ذميم الخلقة، كأنه تجربة زومبي غير ناجحة من فيلم هوليودي، فمه لا يفتح إلا للتدخين أو الشرب أو السب واللعن.

أحمد الله أنني وجدت هؤلاء الغرباء بجانبي، والفضل يعود إلى ''كريستين''، رب ضارة نافعة، أخطأت عندما حكمت عليها بسبب ميولاتها الجنسية، فذلك الجسد المتحول يحمل داخله إنسانا طيبا يحب مساعدة الآخر، وكان أمرا عاديا أن يكون أصدقاؤها من نفس طينتها.

- كيف حالك أيها المجرم اليوم؟

كعادته ''خوليو'' محاولا إضفاء جو من المرح على المجموعة.

- بخير يا صديقي، الشكر لكم طبعا، لأنكم أنقذتم جلدي من الانسلاخ، وأعتذر عما بدر مني ليلة أمس.

- لا عليك فكلنا مررنا من نفس ليلتك قبل اعتيادنا على الشرب. الظروف هي التي تحدد درجة تأثير الخمر في جسدك، إن كنت سعيدا ستسعد أكثر وإن كنت تعيسا ستتعس أكثر.

اقترب خالد مني ووضع يده فوق رأسي، كانت يده المغربية مملوءة بحنان البلاد، أيقظت ذاكرتي القريبة، لكنني تغلبت على ذلك. كيف أحكم على شخص بميوله الغريب عني، وأنا ممدد فوق سرير ''كريستين'' التي كرهتها أول مرة بسبب ميولها الجنسي، فكانت أول يد مدت لي في الغربة.

- سيتحسن حالك يا صديقي، لا تحزن فأنا الوحيد داخل هاته الغرفة الذي عاش نفس ما تمر به الآن. فلولا لطف الأقدار بي، التي أوقعتني في يد هذا الشارب، لعدت إلى المغرب في الأسبوع الأول من وجودي هنا. لا عليك استرح الآن وسنتبادل أطراف الحديث لاحقا، تحدثني عن أحوال البلاد وأرشدك إلى طريق الانبعاث من الرماد.

- شكرا يا ابن بلدي.

اعتذر "خوليو" وخالد ورحلا إلى سبيلهما، بينما بقيت في الغرفة مع "مايلي" في الوقت الذي كانت "كريستين" تعد الغذاء.

8

أحضرت "كريستين" طاولة صغيرة إلى جانب السرير، وضعت فوقها صحنا مملوءً بقطع الدجاج المشوي، وحبات الزيتون وسلطة خضر وفواكه متنوعة، وقنينة نبيذ أحمر. جلست "مايلي" أمامي، كانت رغبتي في أن أقبلها أكبر من رغبتي في الأكل، حاولت جاهدا كبح رغبتي الجنسية، وتناولت الطعام بشراهة كأنني أفطر من صيام أيام عدة. إنه الجوع بعد الثمالة! وصدق من قال: «إن الجعة تخلف وراءها وحشا يلتهم الأخضر واليابس». تناولنا الغذاء وخرجت الفتاتان تاركتين وراءهما شخصا خائر القوى، طريح الفراش لا يقوى سوى على التفكير الأسود..

استويت في مكاني وأشعلت سيجارة من علبة وضعتها "كريستين" في متناولي عندما همت بالخروج، سكبت كأسا من النبيذ المتبقي من الغذاء، وانطلقت زوبعة الأفكار المتضاربة في رأسي. هل هذا هو الواقع الوردي الذي كنت أرسمه في مخيلتي عن أرض الأحلام؟ لماذا تحول الحلم فجأة إلى كابوس؟ هل أفرطت في الحلم أم أنني تعيس حتى لو ذهبت إلى الفردوس سيتحول إلى جحيم..؟

آه، كم أشفق على حالي!

الوطن طردني والغربة رفضت أن تستقبلني، فعلقت بين الهنا والهناك. يا ليت الموت فك أسري في البلاد! الموت وحده يساوي بين الغني والفقير، ولا يهتم بالأسماء الرنانة، الموت وحده ينتشلك من رحلة مجهولة لا بداية لها ولا نهاية.

أتساءل مع نفسي: لم يعلق الراغب في الانتحار آماله على جودة الحبل أو صلابة الأرضية، وهو ينشد أمله في ترك الحياة بعدما فقد الخيط الرفيع الذي يربطه بها؟ لماذا يعقد الطالب الممتحن كل آماله على تلك الفكرة التي تجر وراءها الإجابة عن سؤال الامتحان؟

ما الذي جرني إلى التفكير في أنواع الأمل؟ يا لحماقتي! ألم أستنفد كل الآمال في البلاد؟ فما كان علي إلا أن أترك أرضي مرغما. كيف لشاب أمضى ثلاثين سنة من عمره في أرض أن يتركها وهو فرح؟ وكيف لمحب أن يترك حبه وراءه مسرورا؟ كم يؤلمني أمر ترك تلك المسكينة ورائي؟ أين هي الآن؟ ترى هل استطاعت محو صورتي من ذاكرتها. لو كانت لدي قدرة خرافية لتسللت إلى ذاكرتها ومسحت كل أثر لي بها، ومنحتها فرصة أخرى لتعيش الحب الذي تستحقه.

ها أنذا أعود بالزمن إلى الوراء، إلى أول لقاء بيني وبين زوهرة، وكيف شاءت الظروف أن تصبح حياتها سوداء. ألعن اليوم الذي حكم فيه على فتاة مثلها أن تغرم بشاب فاشل مثلي. كان يوما مشمسا، مثل أيام الصيف الحارقة بقرية آيت إيكو، كنت ملقى ككلب هزمته حرارة الصيف بجانب الطريق المؤدي إلى الدكان

الوحيد بالقرية تحت ظل شجرة. عندما تسلل صوت أقدام إلى سمعي، حاولت رفع رأسي الثمل بعصير التين المخمر "الماحيا" لأتحرى الأمر. أربع أرجل ترتدي شرابيل أمازيغية الشكل، إحداهما ترفع ثوبها بيديها مما مكنني من مشاهدة بعض من ساقها الناصع البياض، تخرج من تنورة قروية مزخرفة بزهور ربيعية جميلة. بياض جسد صاحبتها يعطيها لونا مشعا كأنها تلبس لأول مرة.

بدأت الساق تكبر وتكبر وتكبر حتى أصبحت على مرمى حجر مني. راقني المشهد كثيرا فأردت أن أشاهد حاملة الساق. استويت جالسا، مرت الفتاتان بجانبي وتعرفت على إحداهما، إنها يطو ابنة الحاج العربي، أحد الفلاحين الكبار بالقرية. يطو الفتاة المتقلبة المزاج، كنت أدعوها بالشمطاء "شرشابيل" عندما كنا صغارا، لم أكن أحبها، هي أيضا تبادلني الكره نفسه، لازلت أحتفظ لها في ذاكرتي بصورة الفتاة القصيرة النحيلة، شعرها المجعد الذي لا يمكن تمشيطه إلا بالقرشال، أنفها المملوء دائما بالمخاط المثير للاشمئزاز، وجهها المتسخ طيلة الوقت كأنها خارجة من زلزال، درسنا معا في المدرسة الإبتدائية.

- السلام عليكم أ عبدو...

- أين هو السلام؟ هل وجدته فلسطين التي يناضل شعبها من أجله طيلة هاته السنين؟

لم أعرف لماذا أجبتها لحظتها بتلك الطريقة العنيفة، من اللباقة أن أرد التحية، لا أن ألعب دور الفيلسوف الثمل الملقى على قارعة الطريق، خاصة والملاك الجميل بجانبها.

- لازلت تعاقر الخمر وتدمر حياتك بيدك؟

التفتت إلى الفتاة الجميلة بجانبها:

- ليست لدي الدوافع والأسباب الموضوعية لأقلع عن الشرب، عندما أعثر على قمر جميل مثل ذلك الذي يرافقك أعدك أنني سأتوقف عن الشرب، وإلى ذلك الوقت سأتخيل القمر في السماء يؤنس وحدتي...

- أتتغزل بأختي أيها السكير العربيد؟

والتفتت يطو إلى زوهرة، كان وقع الجملة الأخيرة التي نطقت بها طيبا على الفتاة الجميلة، فعبرت عن رضاها بفتح ثغرها الجميل ليظهر اللؤلؤ المنضود داخله، قاطعتها يطو محاولة وضع حد لمشهد رومانسي...

- إياك أن تصدقي كلام هذا السكير، فأمثاله ممن درسوا الفلسفة يجيدون ممارسة الكذب، يوهمون محاورهم بالحقيقة الوهمية التي يروجون لها، وذلك لتحقيق رغباته بسهولة تامة.

كان وقع اسم زوهرة على قلبي طيبا كمعناه، أحيا الزهور داخل البيداء المقفرة وسط جسدي، حتى أنني نسيت أن أبادل إيطو الشتائم كعادتي. إنه الحب يحول الإنسان المتحجر إلى شاعر رومانسي يناجي السماء ويتغزل بالقمر والنجوم، أنساني النظر في عيني زوهرة الرد على أختها الكبرى. كيف للحاج العربي الذي يشبه أحدب نوتردام في رواية فيكتور هيغو أن يلد ملاكا مثل زوهرة..؟

لا وقت لرد الإساءة، الوقت وقت تأمل في بدائع الخالق، زوهرة وردة نبتت في أرض لا تنتج إلا الصبار الآدمي، حالة استثنائية،

فم صغير وردي لم يعرف أحمر الشفاه إليه بعد سبيلا. وجنتان متوردتان بفعل حرارة الصيف، فوقهما قمران يميلان إلى الخضرة يرميان بالناظر إليهما في عالم من الأحلام الجميلة، تعيس من لم يحظ بشرف ذلك، وأنا التعيس الذي حظي بذلك الشرف. تضع كغالبية فتيات القرية قطعة ثوب فوقه "فولار" تخرج منه بعض الخصلات الثائرات على النظام الذي فرضه المجتمع القروي على بناته، تلك القطعة من الثوب تخفي تحتها شعرا حريريا يميل إلى أن يكون أشقر، ليس مثل شقراوات أمريكا، بل لون قروي مغربي خالص، متوسطة القامة ممتلئة الجسم مقارنة بـ"كريستين" وقريناتها الأمريكيات، ومثالية الجسم بالنسبة لقروية تتألف أغلب وجباتها من مواد دسمة.

وضعت زوهرة آنذاك الحرف الأول في قصة حبنا التي استمرت إلى أن قررت أن أترك الوطن في اتجاه أمريكا، وربما لن أعود... كم كان اللقاء الأول بيننا جميلا ورومانسيا، شبيها بلقاءات العشاق في الروايات. بعدما تمكنت من إيصال رسالة إليها عن طريق صاحب الدكان الذي أخد مني مقابل ذلك عشرة دراهم، متعللا بالخطر المحيط، كأنني طلبت منه وضع لغم في منزل الحاج العربي.

التقيت زوهرة في حقل زيتون المعطي القريب من منزلنا لأنه مهجور، لا يقصده إلا منبوذو القرية. تأخرت بعض الشيء، فمر وقت الانتظار طويلا كأنه قرون وليس دقائق، لكنني اكتشفت أنها تستحق، بعدما أشرق المكان نورا بجمالها، جاءتني لتجردني من المضغة داخل جسدي، أخذتني مني وقامت بإحياء كل شيء جميل

في جسد أنهكته مقاومة الموت كما يريد الآخر، والبحث عن الموت المشتهى.

وقفت أمامي خجولة، لم ترفع عينيها في عيني، توردت وجنتاها لتتحولا إلى زهرة حمراء في بستان أبيض جميل، ساد الصمت بيننا للحظات. أصوات العصافير تشدو فوق أشجار الزيتون، تضفي لمسة شاعرية على المشهد الرومانسي أمامها، مددت يدي إلى يد زوهرة لإلقاء التحية.

- سلام زوهرة.

- سلام عبدو...

نطقت اسمي بصعوبة كأنها ستلفظ أنفاسها معه، نزعت يدها من يدي الخشنة، كانت يدها دافئة رطبة أنستني أن أتركها بعد انتهاء وقت التصافح المتعارف عليه.

- أعتذر لأنني تأخرت بعض الشيء فليس من السهل الهروب من عيون المراقبين، وأنت تعرف حال القرية أحسن مني.

- لا عليك يا زوهرة فملاك مثلك يستحق الانتظار العمرَ كله...

- كيف أحوالك؟

- بخير. وأنت؟

- عندما شاهدتك نسيت كل آلامي وأوجاعي...

توردت وجنتاها مرة أخرى وفتحت ثغرها بابتسامة خجولة، اضطررتُ إلى التوقف عن مغازلتها، عندما همت بالذهاب طلبت مني أمرا قبل الانصراف.

- أغمض عينيك يا عبدو.

- ها أنذا... ما أنت فاعلة بي يا ترى؟

وضعت زوهرة أول قبلة حب على وجهي، لم تقبل خدي بل قبلت قلبي، كانت قبلتها كقلم خط اسم زوهرة في قلبي، في مكان أعدّ لها سابقا، نعم عبدو الزبلبولي السكير، العربيد، المنبوذ، الناكر لكل الأحاسيس والمشاعر والمتأثر بالعبثية يسقط في الحب، يا لسخرية القدر..!

9

سمعت صوت المفاتيح في الباب، لابد أن الفتاتين عادتا. الساعة تشير إلى الثامنة ليلا. كان الصوت القادم يوحي أن هناك شخصا آخر مع "مايلي" و"كريستين"، إنها "إيميليا" الممرضة، الفتاة السمينة صديقة "مايلي"، سألتني عن حالي، أجبتها بشكل ميكانيكي. دخلت "مايلي" وجلست فوق السرير بالقرب مني، بينما التحقت "إيميليا" بـ"كريستين" إلى المطبخ:

- كيف حالك يا عبدو؟

همست وهي تمرر يدها الناعمة فوق جبيني.

- بخير يا مايلي، بدأت أتحسن.

- وجهك النحيل كئيب الملامح. يوحي أنك عانيت الويلات لتصل إلى هنا. لا أفهم السبب الذي يدفع بعض الدول إلى إكراه مواطنيها على الرحيل؟

- ليس العالم كله، وليس كل الأوطان أوطان..

أخذت "مايلي" سيجارة وطلبت مني أن أشعلها، لم أتوان عن فعل ذلك. العطر الذي تضعه أقوى من رائحة الدخان، فتاة جميلة

كلها أنوثة وإغراء، اختارت النساء لا الرجال. يجب أن يقف كل الرجال في العالم دقيقة صمت حدادا على ضياع ريم جميل مثلها، يجب أن أحمد الله أنني تمكنت من الاقتراب من وجهها وأن أشم رائحتها، كمصاص دماء خبير، عرفت أن دمها من النوع الممتاز، يشبه النبيذ الراقي القديم. يا ليتني حصلت على رشفة منه.

- لماذا تحبين ممارسة الجنس مع النساء؟

هذا السؤال ظللت أحمله معي طيلة سنوات منذ اليوم الأول، الذي علمت فيه أن فوق الأرض نساء تشتهي النساء لا الرجال.

- أنا أميل إلى النساء لكنني لا أكره الرجال.

- كيف ذلك؟

- أنا لست مثلية، فأنا مزدوجة الجنس، أمارس مع الرجال والنساء على عكس صديقتي إيميليا فهي مثلية خالصة. لا أخفي عليك أنني أحب النساء أكثر، وربما أتحول مستقبلا إلى مثلية خالصة.

عاد الأمل، أي أمل، وهل أفكر في مضاجعة صديقة "كريستين" بعدما مدت لي يد العون؟

تناولنا العشاء بعدما تعذر على خالد و"خوليو" الالتحاق بنا، شربنا نخب تحسن صحتي. خرجت "إيميليا" و"كريستين" وبقيت مع "مايلي" إلى حين عودتهما، أحضرت "مايلي" قنينة ويسكي نصفها فارغ من الثلاجة، وجلست فوق السرير، صبت لي ولها كأسين ووضعت قطعة ثلج داخل كل واحد، وطلبت مني أن أحدثها عني.

استرسلت في قص حكايتي البئيسة، وصفت لها حال قرية آيت إيكو كنموذج لقرية مغربية منكوبة. يعاني سكانها من التهميش والعزلة والفقر، وعن احتكار ثرواتها الفلاحية من طرف الفلاحين

الكبار. كانت ملامح "مايلي" تزداد كآبة كلما توغلت في السرد أكثر. دفعني ذلك إلى أن أتوقف عن الحديث عني. قصتي التعيسة وجدت لأحملها أنا وحدي، حاولت مراوغة "مايلي" بسؤالها عن العمل الذي تقوم به.

- أنا طالبة جامعية أعول نفسي من خلال تمتيع أمثال إيميليا جنسيا، نفس الدور الذي يقوم به خالد إلا أنني أقوم به عن حب، فأنا لا ألقي بنفسي على قارعة الطريق لمن هب ودب. بل أختار من النساء من تعجبني وأتقاضى جراء ذلك العمل مبلغا أغطي به حاجياتي الدراسية.

توقفت عن الكلام ثم أردفت وكأنها تذكرت شيئا:

- أمثال إيميليا مستعدات لدفع كل أجرتهن من أجل التمتع بجسد أنثوي مثل الذي أتوفر عليه. أنا أعلم أنني جميلة، وجسدي أنثوي، وهذه هبة من السماء لابد أن أستثمر فيها قبل أن تذبل مع مرور السنين.

اتبعت جملتها الأخيرة بضحكة تشبه كثيرا ضحكة الراقصات المصريات المغرية، وواصلت حديثها:

- لو اخترت الخروج إلى سوق الدعارة ما كنت سوى جسدا مستهلكا، اخترت أن أذهب في طريق النساء لأنه يحتوي على إيجابيات كثيرة بمناسبة الحديث عن الذكور.

اقتربت "مايلي" من وجهي، وهمست في أذني:

- أنت تعجبني كرجل، رائحة الفقر التي تفوح منك مغرية أكثر من أغلى العطور الفرنسية. قسمات وجهك الكئيبة المبهمة تجعل الآخر يفكر في فك شفرتها.

وبينما كان وجه "مايلي" يعود إلى مكانه التقت عينانا في مشهد هادئ عادة ما يسبق العاصفة، تسللت أنفاسها إلى أنفي عليلة كنسيم الصيف في الليل، لم أعد قادرا على المقاومة. عضت على شفتها السفلى بشكل لم يترك لي المجال في أن أفكر إلا في أن ألتهمها. إنها لغة الجسد في الحب، كأنها تقول لي تقدم لا تخشى شيئا. تلك الحركة كانت آخر حركة قامت بها شفتاها خارج فمي، ألصقت فمي الشبيه بمدينة نصف بنيانها مهدوم بفعل العدوان بفمها. كان مذاق شفتيها يمنعني من الابتعاد أو من التفكير في العواقب.

بقيت منغمسا في التلذذ بهما إلى أن قاطعني صوت "كريستين":

- عبدو... مايلي... فوق سريري؟

كنا قد تقدمنا في العملية كثيرا وتجردنا من ملابسنا، كنت أبدو بالضمادات على جسمي كنصف مومياء. كان المشهد بشعا، بملابس "كريستين"، ونقودها التي تداويت بها وفوق سريرها. أي حيوان يفكر في ذلك؟

شل لساني عن الكلام، بينما التفتت إليها "مايلي"، كأن الأمر عادي جدا. صرخت "كريستين" في وجهها مثل ضابط عسكري. خرج الرجل أخيرا من جسدها:

- اخرجي أيتها العاهرة، عندما أعاود مشاهدة وجهك أمامي كوني على يقين أنني لن أتوانى في قتلك.

لملمت "مايلي" أغراضها وخرجت مشيرة بأصابعها إلى "كريستين":

- فلتذهبي إلى الجحيم أنت وبيتك هذا!

ها أنذا أفسد الأمر مرة أخرى، لقد عضضت اليد التي قدمت لي الطعام، وددت لو تفتح الأرض وتبتلعني. نظرت "كريستين" إلي وعيناها تملؤهما الدموع، حاولت "إيميليا" تهدئتها.

- عبدو... ارحل.

لم تضف "كريستين" كلمة أخرى وراءها، كم كنت أود أن تشتمني لحظتها، لم أقو حتى على الاعتذار. حملت حقيبتي وخرجت إلى المستقبل المجهول. هذه المرة كنت مقتنعا بالوضع لأنني المتسبب فيه. لم أستطع مقاومة رغباتي الحيوانية بإعتباري شابا قادما من مجتمع محافظ يحرم عليك حتى التكلم مع النساء، فلم أكن قويا بما يكفي لأقاوم إغراءً احترافيا. تمشيت كثيرا بدون وجهة، كل شارع يلقي بي إلى شارع آخر، أتيه في مخيلتي فيوقظني شتم أحد سائقي السيارات، لسيري وسط الشارع. كنت أسير في كل الإتجاهات بدون وجهة، تابعت المشي حتى انهارت قواي. توجهت إلى ساحة لعب للأطفال لعلني أستطيع النوم بعد كل ذلك. افترشت معطفي وارتميت فوقه متمنيا أن لا أقوم منه إلا وأنا بين يدي عامل ثلاجة الموتى.

صدق الغيلم عندما قال «إن من يجري وراء العاهرات ينام في الشارع». لما أراد إغواء نحلة فقامت بلسعه وانتفخ رأسه إلى درجة لم يعد قادرا لإرجاعه إلى صدفته، فأمضى الليل خارجها. هذا ما حدث معي، إلا أنني لسعت من طرف نفسي. لقد طردت نفسي خارج شقة كريستين وفقدت خيط الأمل الذي كانت تمثله...

بدأت أومن بأنني السبب فيما وصلت إليه في وطني. بدأت أشعر أنني السبب في تقهقر أوضاعها على جميع المستويات، بسبب هالة الشر والشؤم التي ترافقني أينما وجدت، ربما تحسنت أحوال العباد هناك برحيلي!...

تذكرت وعود أمي بأن الغد سيكون جميلا، تذكرت دموعها كلما وجدتني كالكلب الثمل مرميا بين الحقول. لم تكن تهتم بنظرة أهل القرية وهم يصفونني بأبشع الصفات. كانت تؤمن بي وتخاف على حياتي، غير مبالية بحياتها التي تفنيها في سبيل إرضاء شخص لا أمل في أن يكون إنسانا يوما ما. كنت السبب في أن أهل القرية انقطعوا عن معاملتها بل أصبحوا ينادونها باسم أم الكافر بالله، لأنني كلما ثملت أرفع رأسي إلى السماء وأبدأ بسب الرب وملكوته... كانت صورة أمي تقتلني كلما فكرت فيها. أبكي دما كلما تذكرتها. ألوم القدر لأنه منحها ابنا فاشلا مثلي.

أوقفت ملوحة الدموع زوبعة الأفكار، مسحت وجهي وغفوت إلى أن أيقظني صوت قادم من بعيد نحو الساحة...

10

صوت أنين يتسلل إلى سمعي، كأنه صوت فتاة تبكي، الصوت يقترب، على مرمى حجر مني، وأنا نائم تحت آلة اللعب الموضوعة في الساحة. الفتاة ترفض أن تسلم نفسها لشابين لا أتبين ملامحهما وسط الظلمة، وهما يحاولان أن يجبراها بالضرب. حاولت أن أعود إلى النوم وألا أشغل بالي بمشكل لا يعنيني. لكنني لم أستطع، فصوت بكاء الفتاة وصراخها يطرق أذني. لم أقو على الرجوع إلى النوم وعملية اغتصاب وحشية تجري على مقربة مني. قررت أن أساوم الشابين، ارتديت معطفي وحملت حقيبتي واتجهت إليهم، ما إن أبصراني حتى توقفا عن الضرب والتفتا نحوي:

- ماذا تريد يا هذا؟

- من العار عليكما ضرب فتاة لا حول ولا قوة لها، سأمنحكما المال لتجلبا مومسا تفرغان فيها كبتكما الجنسي... ما رأيكما؟

- إياك أن تحاول لعب دور المنقذ أيها الغريب.

التفت الشاب إلى الفتاة محاولا إتمام عنفه كأنه تحد بطريقة غير مباشرة، اقتربت منهم. دخلت في عراك مع الشاب الأول

صرعته أرضا، فقام الآخر أثناء ذلك باستغلال الفرصة فانقض علي من الخلف. وانهالت علي اللكمات والركل من كل جانب. أخذ الشابان حقيبتي بعدما سمعا صوت سيارة شرطة تقترب. فر الشابان وتركاني مع الفتاة ملقيا فوق أرضية الساحة...

«ما دير خير ما يطرا باس» هكذا كانت أمي تردد، كلما تورطت في عمل بطولي. ما إن أبصرت الفتاة سيارة الشرطة حتى تنكرت لجميلي، وألصقت تهمة الاغتصاب بي. ها هو القدر ينتقم مني لأنني عضضت يد "كريستين"؟ هاهي الفتاة تعض يدي الآن. وضعت الأصفاد على معصمي وأخذت إلى قسم الشرطة كمجرم، أمضيت ما تبقى من الليلة مصفدا ملقاً في زنزانة باردة.

ها هو القدر يلعب لعبته مرة أخرى، يحولني إلى شماعة يعلق الناس عليها أخطاءهم. ها هو أبي يتجسد أمامي، كأنه حقيقي ليعيد ممارسة هوايته في نصحي ونعتي بأقبح النعوت:

- عبدو. الناس تدرس وأنت اخترت التفلسف، بقا كتفلسف حتى تحماق، انظرْ أين أوصلتك فلسفتك الآن..؟

ها هي أمي تجيبه دفاعا عني، محاولة إضرام النار في الجليد:

- ما أدراك أنت بالفلسفة، على الأقل لم يبق حمارا مثل والده.

يرفع يده عاليا، يسدد كعادته لكمة إلى وجهها، الذنب ليس ذنبه، بل في كره المجتمع للفلاسفة وكل من اقتفى أثرهم، الفلسفة هي الكفر والإلحاد والزندقة. لم أخيب ظن والدي كثيرا، فتحولت إلى إنسان مفرغ المحتوى، كمزهرية بدون زهور، لا ينفع في شيء كحليب الأتان.

كثيرا ما يتملكني الندم على سنوات أضعتها في الركض خلف حلم مستحيل التحقق، لو بقيت أميا لكان اندماجي في السوق والقرية أيسر. لم أكن أريد سوى وظيفة بسيطة أقتات منها، إلى أن تدق ساعة العبور إلى العالم الآخر. موظف بسيط بأجر زهيد، يضحي بعمره من أجل تسديد ديونه، يعد اللقمة قبل أن يدخلها إلى فمه، يضيع سنين عمره من أجل أن يحصل رؤساؤه على الترقيات...

لم تكن أحلامي كبيرة لدرجة أن يسعى الجميع إلى اغتيالها، حاولت الاندماج في المجتمع القروي مرة أخرى بعد أن رفضتني المدينة. استيقظت باكرا لأذهب إلى السوق كأي قروي يسترزق ربه. تسلحت بأدعية أمي ونصائح والدي المملة التي يستغل أي فرصة ليرددها أمامي، كشاعر فخور بقصائده الركيكة. سحبت العجلة من عنقها إلى داخل السوق، طمعا في الحصول على مائة درهم إضافية إذا نجحت عملية البيع، صوبت أعين القرويين نحوي كشيطان يحاول اقتحام عالم الملائكة. كانت نظراتهم أشد عنفا من التعذيب الجسدي. عدت أدراجي إلى البيت، لأجد سمفونية أبي المعتادة تنتظرني، شباب القرية يتجنبون مجالستي وكلما اقتربت من جمع يتشتت كأنني كلب أجرب. عشت في عزلة كبيرة حاملا بين كتفي كل أخطاء سكان القرية. تكررت محاولات الاندماج إلى أن تعبت فساعدتهم في تحويلي إلى منبوذ القرية الأول وشؤمها المتجسد.

أخذتني الغفوة وأنا أتنقل بين ذكرياتي بالقرية، ليوقظني شيء غريب دافئ سكب على وجهي بعنف. ما هذه الرائحة الكريهة؟

تحسست السائل فوجدته لزجا، كريها، إنه قيء سكير أحضرته الشرطة للتو. لعنة الله عليه وعلى الظروف التي جمعتني معه، جمعت أصابع يدي لأسدد له لكمة عرفانا بجميله الكريه. لكنه قذف بكلمة اعتذار نزلت كقطعة ثلج على مسامعي، لفظها بصعوبة بالغة، حاولت تهدئته إلى أن دخل في سبات عميق. لا أعلم السبب الذي دفعه إلى الإفراط في الشرب، وهل هناك من سبب يدعوك إلى أن تبقى صاحيا في هاته التراجيديا المسماة "الحياة"؟

- عبدو الزبلبولي... عبدو استيقظ أيها المغربي، لقد استجابت السماء لدعواتك...

استيقظت بصعوبة، على صوت الشرطي الرخيم وهو يحرك جسدي المتعب.

- حاضر سيدي.

فتح الشرطي الباب، ابتسم وأمرني بمرافقته لإتمام إجراءات المغادرة، في الممر إلى مكتب الرئيس التفت إلي قائلا:

- أنت محظوظ أيها المغربي... نجوت من إقامة طويلة الأمد بالسجن.

- لماذا؟ هل حطمت تمثال الحرية...؟ لو أنني محظوظ ما كنت لأغادر وطني بحثا عن السعادة الوهمية.

- تهمة الاغتصاب هنا أكبر من تحطيم التمثال. لقد اعترفت الفتاة لنا بأن صديقها هو الذي حاول اغتصابها وأنك بريء من التهمة.

- الشكر لها إذن.

- هي من يجب أن تشكرك لأنك حاولت إنقاذها. أعتذر لك باسم كل شرطة الولايات المتحدة الأمريكية...

لم أكن في حاجة لأي اعتذار، استعادة الحرية أكبر من كل شيء، تغلبت الفتاة أخيرا على عاطفتها وحكمت عقلها، وانتصرت الإنسانية على غرائزها الحيوانية. لابد أنها من معدن نفيس. متى يستيقظ ضميري يا ترى؟ لأتخلص من التعذيب النفسي اليومي؟ فلا أنا حي ولا أنا ميت، عالق في قنطرة العبور. أحمل فوق رأسي صخرة سيزيف ضخمة، لا هي سقطت لتريحني، ولا هي ألقت بكل ثقلها لتخلصني من العيش في مرحلة العبور إلى الهناك.

أتممت إجراءات الخروج، وتسلمت حقيبة الجيب، وعدني الشرطي بأنهم سيتصلون بي عندما يجدون حقيبة أمتعتي. أنستني فرحة الانعتاق من قضبان السجن التفكير في الوثائق التي فقدتها في الحقيبة، كانت فكرة "ألكاتراز" أكبر من أي وثيقة أو شهادة محصل عليها.

قبل أن أغادر، فكرت في الحديث مع الفتاة التي كانت تنتظر في مكتب المحقق، وعدت الضابط ألا أوجه لها أي عنف لفظي، قد يعيدني إلى غياهب السجن. لم تستطع الفتاة النظر في عيني مباشرة:

- كيف حالك آنستي؟

- بخير سيدي. أعتذر عن تنكري لجميلك. كنت ثملة، سيطرت علي غرائزي. فكنت على وشك توريط شخص بريء...

- لست بريئا يا آنستي. ربما أنا متورط في أمور أكبر من أي جرم يدخلني السجن. أنا متورط في جرائم إنسانية لا يؤطرها إلا قانون الضمير. لم أطلب مقابلتك لأعطيك دروسا في الحياة. أنا هنا فقط لأشكرك.

- تشكرني وقد كنت على وشك زجك في السجن؟

- أشكرك لقلبك الدافئ بالحب المفقود في عالم مهووس بالأنا وسلطة المال.

لم تجد الفتاة أية كلمة أخرى لتضيفها، فانصرفت وأنا أحييها في قرارة نفسي. عند بوابة قسم الشرطة فوجئت بصوت يناديني:

- عبدو... عبدو... عبدو...

تشاءمت من الصوت وترددت في الالتفات. خشيت أن يكتشفوا دليلا، يورطني بالرغم من أنني لم أقترف خطأ. إلا أن علمي المسبق بحظي التعيس يرجح كفة انقلاب كل الأمور الإيجابية إلى كوارث حقيقية. أتشاءم من أي شيء يتعلق بهذا الوجه الذي وضع فوق كتفي، لدرجة تفادي النظر إلى المرآة، كي لا تصاب المرآة بالشؤم وتعادي الآخرين الراغبين في النظر إليها...

إنه خالد الشاب المغربي الذي يضاجع صاحب الشارب "خوليو":

- خالد... ما الذي تفعله هنا؟

- لقد أتيت لأتفقد حال خوليو...

- خوليو...

- اسبقني إلى مرآب السيارات، المكان هنا ليس مناسبا للحديث... سأوصل له بعض اللوازم وألتحق بك...

11

التحق بي خالد الى مرآب السيارات، فوجئت بسيارته الفارهة. هل مهنة النوم مع المثليين مربحة إلى هذه الدرجة؟ تساءلت مع نفسي. جلسنا بمقهى قريب لمركز الشرطة، سألني خالد عن سبب وجودي هناك، حكيت له القصة منذ أن تركني هو و"خوليو" ممددا على السرير بغرفة "كريستين" مرورا بنومي مع "مايلي"، إلى حصولي على البراءة من تهمة كانت سترمي بي إلى غياهب السجن.

- نحن المغاربة مستعدون دائما لممارسة الجنس حتى لو كنا في غيبوبة... فالمغربي لا يموت بتوقف دماغه، بل بتوقف جهازه التناسلي عن القيام بوظيفته...

تذكرت قصة انتحار بوشتى بعدما أجبره ولده على إجراء عملية على البروستات. ما إن تأكد الشيخ الهرم من عجزه عن ممارسة الجنس بعد العملية، حتى بادر إلى رمي نفسه في البئر، فسمي البئر منذ ذلك اليوم باسمه، وأصبح لقب بوشتى في القرية يطلق على الرجل الضعيف جنسيا.

انفجر خالد ضاحكا. لم أتقبل كلامه ولا ضحكته لحظتها مع أنني أشاطره الرأي، بادلته بضحكة صفراء وحاولت تغيير الموضوع:

- ما الذي كنت تفعله أنت في المركز؟

- لقد أوصلت بعض الأغراض لخوليو...

- نسيت لقد أخبرتني بذلك عند البوابة... ما الذي فعله خوليو ليقبض عليه؟

- خوليو تاجر مخدرات. أمر القبض عليه بديهي وروتيني. أولئك الشباب الذين تعاركت معهم ما كانوا ليتركوك حيا بالحانة لولا سمعة "خوليو" في السوق السوداء، فهو ينتمي إلى العصابة المكسيكية الذائعة الصيت بأمريكا، سيمضي بعض الأيام ثم يطلق سراحه بكفالة ككل مرة أو بعد شهور إذا تطلب الأمر ذلك، فالمافيا لديها رجال منتشرون في كل مكان، الشرطة، القضاء، حتى في مجلس الشيوخ...

- خالد... كيف عرفت تاجر مخدرات من هذا الحجم...؟

- الأقدار... (تناول سيجارة من علبته، أشعلها، نفث الدخان عاليا) عندما وصلت إلى هنا عانيت من نفس ما تعانيه الآن. تعرفت صديقا بحانة اقترح علي أن أشتغل كمضاجع للمثليين مقابل أجر. بقيت على ذلك الحال لشهور أحصل فيها على بعض الدولارات من أجل تسديد مصارف الحياة اليومية. عندها تعرفت "خوليو غارسيا" كزبون، أعجب بي واقترح علي أن أشتغل معه...

- أنت أيضا تشتغل بالمخدرات...؟

قلت مقاطعا استرسال خالد في الحديث.

- لو صمت لعلمت أنني لست كذلك. خوليو إلى جانب المخدرات يقوم بإقراض الناس النقود مقابل نسبة مئوية من الربح عن كل قرض. يشتغل كبنك صغير، وذلك من أجل تبرير ثروته للشرطة المالية. ما أقوم به هو التكفل بجمع الديون عند إنتهاء المهلة. أما ما شاهدته في الحانة فأنا مضطر لفعله كي أستمر في عملي، فليس كل الناس هنا إنسانيين ويؤمنون بالقيم الإنسانية. الشياطين منتشرون في كل مكان...

صمت قليلا قبل أن يكمل حديثه قائلا:

- ما رأيك في أن تشتغل معي، ولن تكون مضطرا إلى مضاجعة أحد من أجل الحصول على المال وأنا أضمن لك ذلك...؟

ترددت كثيرا قبل أن أوافق، فأنا تحت مقصلة الحتمية وليست لدي خيارات أخرى، بعدما فقدت السكن وحقيبتي التي كانت تضم كل شواهدي... أخبرني خالد أن عملي يتجلى في مرافقته فقط ومساعدته في عد النقود، أما الأمور الأخرى سيتكلف هو بها، إلى حين أن أصبح محترفا.

الأمور الأخرى...؟ راودني الشك حول طبيعة هذا العمل الغريب. القصص التي سمعتها عن غرائب الحرف في أمريكا تجعلني أصدق أي شيء. لكنني في حاجة ماسة إلى المال لمواصلة الرحلة...

12

كان الزبون الأول مواطنا أمريكيا في الأربعينات من عمره. دخلنا إلى بيته فاعتذر لخالد بحجة أنه دفع المال في عملية جراحية لإبنته، وسيتعذر عليه الدفع، أدخل خالد يده في حقيبته، وأخرج عصا تشبه عصي القوات المساعدة بالمغرب. والتفت نحوي:

- أمثال ابن العاهرة هذا إن لم تستعمل معه العنف لن يرجع لك مالك...

سدد خالد وابلا من الضربات العشوائية للرجل إلى أن طرحه أرضا. لم أقو على التدخل ولا على النطق، فالمشهد كان مفاجئا بالنسبة لي. هذه هي الأشياء الأخرى التي احتفظ بها خالد لنفسه. كنت أتوقع أن نأخذ المال بطريقة ودية لا بالعنف. فتح خالد الخزانة، أخذ منها عشرة آلاف دولار وترك البقية. اقترب من الرجل الممدد على الأرض:

- وهذه النقود... أكنت تذخرها من أجل عملية أخرى لابنتك يا ابن العاهرة...؟

بصق خالد في وجهه وسدد له ركلة، ثم خرجنا.

- لا تستغرب يا عبدو فذلك الوغد مجرد سكير، اقترض المال مدعيا أن ابنته ستقوم بعملية جراحية، وانقضت المدة وأمهلته ستة أشهر أخرى وفي كل مرة يلجأ إلى المماطلة لكي لا يسدد الدين. أنت الآن اطلعت على عملي، والاختيار لك. ستعتاد على الأمر أقسم لك، فأنا في المرة الأولى دخلت في نوبة من البكاء كأنني أبكي موت أمي.

دخلت في دوامة من الأفكار المتضاربة. جانب مني يأمرني أن أقبل العمل ولتذهب الإنسانية إلى الجحيم. لقد كنت إنسانيا طيلة حياتي أتضامن مع الأقليات والضعفاء والمنبوذين والمشردين... ماذا جنيت؟ النبذ والكره والتهميش. وجانب آخر يقول لي: لقد بلغت حدا من النذالة والسوء. لا أحتاج إلى هذا العمل بل إلى شيء أكفر به عن ذنوبي. يكفي ما ارتكبته من أفعال بالقرية وأثناء دراستي بالجامعة.

بقيت على هذا الحال، إلى أن وصلنا إلى منزل آخر. قررت أن أخوض في الأمر إلى حين حصولي على بعض المال يمكنني من البحث عن عمل مناسب. الزبون الثاني كان رجلا من أصول إفريقية عندما سمع طرق الباب التفت إلى أيقونة المسيح المعلقة في الحائط، وبدأ في تلاوة الصلوات. أخبرني خالد أنه نذل جاء إلى "خوليو" طالبا المال لتسديد نفقة زوجته ولينجو من السجن، وفي كل مرة يعتذر بسبب أو بآخر. كان آخرها أنه أرسل لي جاره ليخبرني بأن ابن العاهرة هذا قد مات. لم يبق له الآن إلا الصلاة، لعل السماء تمطرنا بالنيازك أو بحمم بركانية.

اقتحمنا المنزل بالقوة. وجدناه في مكانه خاشعا في صلواته الدنسة. بدا كأنه قد رفع من سرعة الدعاء.

- أبشر يا ابن العاهرة، فقد استجابت السماء لصلواتك وقررت تحقيق العدالة، وإننا مبعوثان منها لنطهرك من ذنوبك. لقد أحضرت الجحيم إليك...

ركل خالد الرجل في ظهره، وأمرني بأن أحضر العصا. طلب مني أن أضربه... ترددت كثيرا قبل أن أقوم بذلك. كيف أقوم بضرب إنسان؟ ومن الذي منحني الحق في استعمال القوة وتعنيفه تحت أية ذريعة؟ كانت العصا تنزل علي أقوى من نزولها عليه. فكنت أضربه هو وأشعر بالألم مضاعفا. أخذنا المال وخرجنا.

دخلت في صمت رهيب. أخبرني خالد أن المرة الأولى تكون دائما مؤلمة ومع مرور الوقت سأصبح جلادا. اقترح خالد أن نذهب إلى منزل "خوليو" لنرتاح، ونحتسي بعض الخمر لأنسى يومي الأول كجلاد. منزل كبير يشبه منازل النجوم والشخصيات المشهورة... إنها المخدرات، التجارة الأكثر ربحا في العالم بعد الأسلحة. يمكن تصنيفها ضمن الأسلحة الفتاكة، فهي تفتك بشعب بدون أن تقوم بالقتل، فتجعل منه شعبا فارغ المحتوى...

شربنا كثيرا إلى درجة أن الخمر لعب برأس خالد، وصارت كل أوراقه مكشوفة أمامي. أخبرني بأسرار استطاع مداراتها طيلة اليوم، كتوقيعه على وثيقة لـ"خوليو" يتعهد فيها أنه أقرضه مبلغا ضخما من المال، وأن كل ما شاهدته، السيارة، النقود، المنزل، الملابس... تعود إلى ملكية "خوليو" وأنه مفلس بدونه.

أجهش خالد بالبكاء عندما تحدث عن أهله، أراني صورة أمه المشلولة وأمرني بالاحتفاظ بها، وطلب مني أن أعده بزيارتها عند عودتي للمغرب، فهو مقيد بـ"خوليو" على حد قوله، مسكين خالد يعاني في صمت.

أي نوع من البشر هذا الـ"خوليو"، كيف يسمح لنفسه بأن يستعبد إنسانا آخر؟ لم أستغرب، من يرضى ببيع السموم للناس قادر على أن يبيع والدته أيضا، هل هناك ذنب أكبر من أن تفرغ إنسانا من محتواه لتجعل منه كائنا يعيش في لاوعيه؟ وأن تقتل الإنسان داخله إلى أن يصبح مجرما خطيراً مثل المنظمات الإرهابية، التي تفرغ ضحاياها من إنسانيتهم، وتنقل روحهم إلى العيش في نعيم الآخرة.

أخبرني أن "كريستين" اتصلت لتسأل عن حالي وأنها طلبت منه ألا يخبرني، لكن السكر يفضح المكنونات. حملت خالد فوق كتفي إلى غرفته، وعدت لأفرغ القنينة، لكي أستطيع النوم بدون أن يشتغل فكري. تماديت اليوم في الشرب، فكرت قليلا في "كريستين"، المسكينة رغم كل شيء غلبت إنسانيتها مشاعر الشعور بالخيانة، بقيت أشرب وأشرب وأشرب...، غاب الوعي وأخذ الهو يسيطر على الأنا الأعلى. توقف العقل عن الاشتغال فدخلت في غيبوبة إلى الصباح...

13

اشتغلت مع خالد لمدة أسبوع، رأيت فيه وجها آخر لسان فرانسيسكو، تحولت إلى جلاد، جمعت مبلغا يمكنني من الاندماج في المجتمع الأمريكي عبر مشروع صغير، أُبعث من خلاله من الرماد، وأعود إلى الحياة كإنسان، لكن كيف أحيي الإنسان بهذه النقود الدنسة...؟

لم يسبق لي أن وضعت يدي على امرأة، إلا أن إفراطي في الشرب جعل مني حيوانا، لم أمنحها الفرصة، ما إن فتحت الباب، حتى ارتميت عليها باللكم. كانت العجوز تنوي أن تدفع لنا بطريقة ودية، لكنني كنت وحشا لا أحتاج إلى سبب لممارسة وحشيتي...

تلك الحادثة التي وقعت في منزل العجوز الأسيوية، كانت النقطة التي أفاضت الكأس. عند عودتنا، دخلت إحدى الغرف بعدما بدأ السكر يخف في رأسي، ضربت رأسي مع الحائط حتى غطى الدم وجهي... عندها فقط قررت التوقف عن هذا العمل، قبل أن أتجرد من آخر ذرة للإنسانية.

دخلت إلى الحمام غسلت رأسي ووضعت ضمادة عليه، وارتديت قبعة كي لا يعرف خالد ماذا جرى. خرجت متجها إلى العجوز لأعتذر لها وأقوم بمنحها كل ما جمعت من نقود، اقتربت من باب المنزل، اتجهت صوب النافذة، كانت العجوز تضم طفلة بين ذراعيها وهي تبكي بحرقة:

- أنت تعلمين يا ابنتي، أنني لست بالقوة الكافية لأتحمل مصاريفك، فبعد أن تنكر والدك لك، واختفت أمك لم يبق لك إلا هاته العجوز المنهوكة القوى، حتى هذا البيت لم أعد قادرة على دفع إيجاره. يا ليتني أستطيع بيع أحد أعضاء جسدي لأتكفل بك، وألا أكون مضطرة لرمي فلذة كبدي إلى الشارع.

لم تكن العجوز تقوى على الكلام بسبب الكدمات التي أحدثتها أثناء ضربها، ليتني توفيت قبل أن أضع يدي على امرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة. كلامها المتعثر كقضيب معدني ساخن غرسته في جسدي، مصيبة القلب مباشرة..! وضعت أمي مكان السيدة الأسيوية، تخيلتني ألكم أمي بعنف، بدأت الدموع تنهمر من عيني كالسيول. بكيت بحرقة لأول مرة في حياتي، استحضرت كل تضحيات أمي من أجلي. شعرت بذاتي تخرج من الحياة متجهة صوب الموت، صوب العالم الآخر، إلى الهُناك...

هذه الحياة لم توجد لشخص مثلي، لابد أن أغادرها، لابد أن أوقف هاته المهزلة لأترك للناس فسحة ليعيشوا في سلام.. بدأت الرغبة في الحياة تتلاشى في رأسي وبدأت أفكار الموت تسيطر علي.

لابد أن أعوض تلك السيدة المسكينة، وألا أحاول نسيانها بالخمر كما كنت أفعل دائما. إذا كنت سأغادر الحياة، فلابد أن أقوم بشيء ما يجعل أحدا يتذكرني بالخير، وإن كان بسيطا، إلا أنه مصالحة نسبية مع الذات، أكفر بها عن ذنوبي وأنقذ حياة تلك الفتاة المسكينة، حان الوقت لأصحو وأتوقف عن السكر، لا سكر بعد اليوم.

عندما كنت أتجول في الشارع، قرب منزل "خوليو" حيث يقيم خالد، جلست على مقعد عمومي لعلني أجد سبيلا للتكفير عن ذنبي بمنزل السيدة الأسيوية، بل والقيام بآخر شيء جميل أتصالح به مع الحياة قبل مغادرتها. جلس بجانبي رجل عجوز، متجعد الوجه، تحمل كل تجعيدة من تجاعيده العديد من التجارب والمغامرات. عيناه تحفهما كآبة كأنه فقد كل أسرته في محارق الهولوكوست، فمه الرخو المفتوح للريح كي يتجول داخله لم يتبق فيه إلا نابين كأنهما أخر شاهدين على الحرب العالمية الثانية. فوقه ينبت شارب أشيب طويل لم يتأثر بعوامل الزمن، يرتدي بدلة كلاسيكية من أزمنة الديسكو الجميلة، تتوسطها ربطة عنق مزركشة الألوان تضفي عليها رونقا وجمالا كلاسيكيا. من دون أن ينطق ببنت شفة، وضع يده على كتفي:

- لا تحزن يا بني فالحياة مستمرة، لا تكترث بابتسامتك ولا بتعاستك. الزمن يمر...

- وما أدراك أنني حزين؟

- انظر إلى وجهك في المرآة يا بني... كأنك تحمل كل هموم العالم فوق كاهلك.

- أووووووووف. يا ليت الموت لم يتأخر، لم أعد في حاجة إلى البقاء هنا...

- لن أنهاك عن الموت فهو في غالب الأحيان نهاية جميلة لكل أنواع العذاب في الدنيا. لكن إياك أن تموت وأنت لم تحقق شيئا يفتخر به أحبابك بعد موتك. لا تجعل ذكراك مصدر شؤم لهم. أن تختار الموت فهي حريتك الشخصية. لكن أن تفسد حياة من أحبوك فتلك جريمة لن تغتفر لك...

استفزني الشيخ الهرم بكلامه، كأنه يعلم بأمري. حاولت أن أرد له الصاع صاعين:

- وأنت... هل قمت بشيء يفتخر به أحبابك بعدك؟

- هذا الجسد المتهالك أمامك. الذي لم يعد يقوى على حمل مقعد خشبي، خاض حروبا مع الجيش، اكتشف بعدها أنه شارك في مجازر ضد الإنسانية. حتى وإن كنت تحارب إلى جانب الحق، فأنت ستضطر إلى قتل إنسان آخر، وليس هناك مبرر لحرمان الآخر من الحياة.

كنت أستمع إليه، أستمع إلى حلمه المجهض، عندما كان شابا مفعما بالروح الوطنية، يسعى لنقش اسمه في لوائح التاريخ، لكنه أصبح مجرما، يداه ملوثتان بدماء الأطفال والشيوخ والنساء، تحت غطاء فرض السلام.

- متى كان السلام يفرض بالسلاح...؟

صرخ العجوز فجأة. حكى لي بحرقة كبيرة عن الوسام الذي حصل عليه بعد الحرب، وكيف فكر لحظتها في الانتحار ليتخلص

من عذاب الضمير؟ لكن ما جدوى الانتحار؟ هل يمكنه أن يمحو تهمة قتل الإنسانية؟

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- منذ ذلك الوقت وأنا أشتغل ليل نهار في مركز إيواء للمشردين، أساعد الفقراء والمرضى لعلني أكفر عن ذنبي. هذا العالم يا بني يحتاج إلى أشياء كثيرة ليصبح عالما إنسانيا.

توقف عن الكلام وكأنه تذكر شيئا قديما.

- أنا كنت أحد المشاركين في فرض سيطرتهم على المستضعفين. أين هي المنظمات الدولية التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان؟ هل تحركت من أجل رفع الظلم وتعويض الدول التي عانت من الاستعباد؟ أم أن الإنسانية مقترنة بالإنسان الغربي فقط؟

- ماهو السبب المباشر الذي دفعك إلى الاستيقاظ من غيبوبتك؟

- لم أعرف حجم الذنب الذي اقترفته إلا عندما فقدت ابنتي الوحيدة بسبب مرض خبيث. شعرت بلوعة الفراق وآلام فقدان شخص عزيز على القلب. شعرت بما أحس به أحباب وعائلات أولئك اللذين قتلتهم في الحروب. كان ذلك بمثابة ناقوس دق لكي أتوقف وألملم إنسانيتي المشتتة، تمنيت لو كان بإمكاني تقديم نفسي كقربان ليعود الجميع إلى الحياة. لكن هيهات... هل ينفع الندم؟ خلصت إلى أن الانتحار ليس حلا، فقررت منذ ذلك الوقت أن أساعد المحرومين من الحياة...

- لا عليك يا سيدي. يجب أن تفتخر بأنك استطعت الاستيقاظ وإعادة ترميم إنسانيتك.

- عدني يا بني، أنك ستفكر فيما قلته لك.

بدأت الدموع تنهمر من عيني الشيخ. كان المشهد غاية في الحزن والإنسانية. لم أستطع مقاومة رغبتي في البكاء، فعانقت الشيخ وبكيت معه، كنت أبكي نفسي أكثر من بكائي على حالته... كأولئك الذين يحضرون مأتما، فيعتقد أهل الميت أنهم يبكونه، في حين أنهم يبكون أنفسهم...

زاد حديث الشيخ من رغبتي في أن أتصالح مع الحياة قبل رحيلي عنها، بدأت تتراقص الأفكار في ذهني، كأنني كنت في حاجة فقط إلى من يدفعني إلى البكاء لكي أستطيع التفكير. الدمع سائل مطهر للدماغ، يقتل الأفكار السلبية الموجودة به ويأخذها خارجا. ليستطيع الشخص بعدها التفكير بطريقة صحيحة. العاشق يبكي معشوقته بحرقة، فيقرر بعد ذلك، هل سيتوقف عن حبها أو سيقاتل من أجل الحصول عليها..؟ لقد بكيت فقدان زوهرة قبل أن أخبرها بفراقنا.

عدت بسرعة إلى منزل "خوليو"، استقبلني خالد مستفسرا عن سبب غيابي، أخبرته أنني كنت في حاجة ماسة إلى خلوة مع الذات لأعيد ترتيب أوراقي الذهنية، وأقوم بتجديد الدماء لمواصلة عملنا. فرح خالد كثيرا وأمرني بأن أحضر زجاجة ويسكي، وبعض الجعة من الثلاجة احتفالا بما حققناه خلال أسبوع، وإعلانا لانطلاق أسبوع آخر من العمل.

كانت أول خطوة اعتزمتها، أن أجعل خالد يشرب حتى يصل إلى الثمالة، فكرت في الضغط على الوتر الحساس لكي يسرف في الشرب. ذكرته بأمه المشلولة التي تركها بالبلاد. انطلق خالد في

الحديث عن أيام صباه وما قاساه في بلده، كان يشرب أكثر وأكثر إلى أن أصبح لا يفرق بين الألف والزرواطة كما يقول المثل المغربي الدارج. تأثرت بقصة خالد لدرجة أنني كنت سأتراجع عن تنفيذ خطتي الشيطانية، لكن الدافع كان أقوى من أي قصة أو تضامن إنساني، حملت خالد إلى غرفة نومه، لقد أغمي عليه بسبب إفراطه في الشرب.

أنا أيضا احتسيت كمية كبيرة من الويسكي، إلا أنني لازلت أحتفظ بوعيي، فتجربة شرب الماحيا في القرية مكنتني من السيطرة على نفسي، كما أن الدافع لدي في عدم السُّكر كان أكبر من أي قنينة خمر وجدت.

انتهزت الفرصة، ولجت غرفة "خوليو" حيث النقود، استعنت بذاكرتي في حفظ الأرقام لأفتح الخزانة، لما رمقت خالد في أحد الأيام وهو يضع النقود داخلها، كان الرمز السري صحيحا.. فتحت أخيرا، وجدت داخلها عدة أظرفة مملوءة بالنقود، أفرغتها وملأتها بقطع ورق من كتاب أخذته من رف المكتبة. لم يكن لدي الوقت ولا الرغبة لعد النقود، فالمبلغ من خلال حجمه يبدو كبيرا وكافيا لتحقيق المصالحة مع الحياة.

تركت منزل "خوليو" وأنا أحمل معي المال، ربما هو كل ما يتوفر عليه نقدا، فأمثاله لا يعتمدون على ذلك المبلغ فقط، بل يضعونه تحسبا لأي حجز على أرصدتهم. يقومون بفتح حسابات متعددة بأسماء أخرى، لو علم "خوليو" بأنني اغتصبت خزنته، سيفجر السجن بغضبه ويتجه صوبي كالصاروخ.

كانت الخطوة التالية أن أذهب إلى "كريستين" لأطلب الصفح منها، في الطريق إليها أخدت باقة ورد وقنينة ويسكي من النوع الذي تحبه. استقبلتني "كريستين" باستغراب، لم تكن تتوقع أن تشاهدني في العاشرة ليلا، محملا بباقة ورد كأنني أتيت لخطبتها:

- عبدو...؟

- بالرغم من علمي أن الأمر سيكون شبه مستحيل، إلا أن ساعة رحيلي قد دقت، ولم أشأ أن أغادر قبل أن أصلح ما أفسدته، لذلك أتيتك راجيا صفحك...

سبقت الدموع لسان "كريستين". كانت مشاعر الحب داخل جسدها أكبر من أي شعور سلبي آخر.

- أدخل... لا يمكن لي أن أكرهك بالرغم من ذلك، وما أمر رحلتك الغريبة هاته؟

- سأخبرك فيما بعد يا كريستين...

تناولنا العشاء وطلبت منها أن تعد لنا طاولة لنحتسي قنينة الويسكي التي أحضرتها، شربنا نخب عودة صداقتنا مرة أخرى. كنت مستعدا أن أضاجعها لكنها رفضت، واعتبرت أن أمر إرغامي على ممارسة الجنس معها خطأ لم يكن عليها أن ترتكبه، وطلبت المسامحة مني، وغادرت إلى غرفتها، فنام كل واحد منا بعيدا عن الآخر...

لم تكن "كريستين" كـ"خوليو"، إنها أمريكية أصيلة، تذكرني بفتيات أفلام الويسترن، تحمل كل صفات نبل وكرم وإنسانية الإنسان الغربي المثالي.

14

استيقظت باكرا على غير عادتي بعد السكر، جلست في مقهى قريبة من شقة "كريستين"، تناولت فطوري، وشربت قهوة سوداء لأتخلص من صداع الرأس، شعرت بأنه آخر فنجان قهوة أشربه، تمنيت لو كانت بقربي قارئة فنجان، بالرغم من علمي أن فنجاني أتعس من أن تقرأه إحداهن.

اتجهت إلى أقرب وكالة تحويل الأموال. قسمت المبلغ الذي أخذته من خزنة "خوليو" إلى ثلاثة أقسام. أرسلت قسما إلى أم خالد المشلولة في العنوان الذي أخذته من حقيبة جيبه، وقسم إلى أمي، والقسم الثالث احتفظت به للعجوز الأسيوية لتعيل به نفسها وحفيدتها.

أرسلت مع النقود التي بعثتها إلى أمي رسالة وطلبت من زوهرة أن تقرأها لها، لأن الأمر يهمها، أعدت كتابة الرسالة مرات عديدة، بسبب الدموع التي بللت الورقة كلما تقدمت أكثر في الكتابة. لم أتمم كتابة الرسالة إلا بعد أن أصبح مذاق وجهي كصخرة ملح.

(إلى المرأة التي وهبتني الحياة، إلى المرأة التي آمنت بي عندما كان الجميع يعملون على جعلي رقما من بين أرقام الوفيات، أمي المرأة التي أحبتني أكثر من نفسها، إلى سبب وجودي...

لم أجد الكلمات المناسبة لأعبر عن امتناني وشكري لكل ما ضحيت به من أجل أن أكون إنسانا، شبابك، علاقاتك الاجتماعية بالقرية، نقودك، صحتك، لم تتواني يوما واحدا عن منحي الدعم المادي والمعنوي لكي لا ألتفت إلى ما يقوله المجتمع. لازلت أتذكر كيف تشاجرتِ مع صديقة طفولتك بسبب زلة لسان تسيء لي. كنت تجدين لي مبررات مع يقينك أنني في الطريق الخطأ، إلا أن حبك أعمى المنطق لديك، كانت رغبتك في مشاهدتي أضحك أكبر من أي قانون اجتماعي أو ديني تؤمنين به.

كان حلمي عندما غادرت البلاد، أن أستطيع رد جميلك الخرافي. أتمنى أن تكون هذه الدولارات كافية لتعيشي ما تبقى من حياتك في هناء وسرور. أنا أعلم أن لوعة فراق الابن تنزل كالصاعقة على الأم. لكن يا أمي، اعلمي أنني لن أكون سعيدا لو علمت أنك تحزنين بسببي، وقد سعيت بكل ما أوتيت من قوة لأحول دون ذلك وأحقق لك السعادة، لن أمنعك من البكاء إلا أنني أرجوك عدم الإفراط فيه، فدموعك تقتلني أكثر من الموت نفسه..

لقد قررت أن أغادر الحياة، بعدما فقدت الخيط الذي يربطني بها، إنها رغبتي وأتمنى أن تتفهميها يا أمي، كما تفهمت كل رغباتي الغريبة. أتذكرين عندما أخبرك أحد الجيران أنني أضاجع أتانا، فصرخت في وجهه:

- سأشتري له قطيع أتان إذا كانت رغبته تلك، ولا دخل لأحد فيما يحبه ابني.

كنتِ الأم والطبيب النفسي ورجل البيت بعدما غادرنا والدي. سأطلب منه أن يسامحني إذا التقيته هناك. لم أكن أنوي قتله، إن الفخ الذي أمسكه أعددته للخنزير الذي كان يتلف محاصيل القرية، وما يدعيه القرويون كله كذب وبهتان بأنني نصبت فخا لأقتل والدي، كيف لابن أن يقتل أباه حتى لو كان ذلك الأب مجرما...؟ فما بالك بأب يحب ابنه ولا يريد منه إلا أن يصبح رجلا يفتخر به أمام الآخرين. تدحرج بعدما أمسك الفخ رجله، إلى أن وجد نفسه في قاع النهر، أردت أن أتقرب منه بقتل ذلك الخنزير، فتقربت بوالدي إلى الشيطان.

اعلمي يا أمي أنني أحب والدي بالرغم من الحروب التي خضتها ضده، إلا أنني كنت على يقين أنه يريد مني أن أكون رجلا وأن أرفع رأسه وسط سكان القرية.

وتقبلي تحيات ابنك الذي أحبك وسيستمر في ذلك إلى الأبد...)

لم أنس أن أكتب لزوهرة المرأة الوحيدة التي أحبتني بعد أمي، وقبلتني بكل هفواتي وأخطائي اللامحدودة...

(إلى زوهرة... حبيبتي،

لازلت لم أجد سببا منطقيا واحدا يدفع حورية مثلك أن تغرم بمنبوذ مثلي؟ جميع الرجال في العالم يتمنون فتاة بنصف جمالك وأخلاقك وطيبة قلبك، سأطلب من أفروديت إذا حظيت بفرصة لقائها أن تضيف اسمك في لائحة العشاق، فلا فرق بينك وبين جولييت وليلى وكيليوباترا...، فأنت أفضل منهن.

لقد أغرمت بي بدون شروط، وهذا هو الحب. سليلة أسرة الحاج العربي الغنية أغرمت بكافر القرية المسخوط بوبهايم، إنه ضرب من المستحيلات!

لقد عرفت في حياتي فتيات كثيرات، ومارست الجنس كثيرا ومع أجساد مختلفة. إلا أنني أحببت مرة واحدة، أحببتك أنت فقط. أنت الوحيدة التي لم أكن أشعر بالرغبة في ممارسة الجنس معها بالرغم من إعجابي بجسدك الأنثوي المثير، كان حبي أكبر من غرائزي الحيوانية..

كلما تذكرت اسمك إلا وتملكتني غصة وقرحة وألم عميق وشعور بكره الذات، وسخط على الأقدار التي حالت دون أن أستطيع إتمام حياتي معك.

كنت أعتبر نفسي وحشا، حتى أتيت وأحييت الإنسان بداخلي، أخرجني حبك من الظلمات إلى النور، ضخ الدم في قلب تآكل بمشاعر الكره، فلا أشعر بنفسي إلا وأنا بين حضنك، أحببتك يا زوهرة إلى درجة الإيمان أنك تستحقين رجلا غيري، رجلا مستقيما وليس مخلوقا تعيسا تحفه هالة من الشؤم والكآبة.

لو كان باستطاعتي تغيير الماضي لعدت إلى أول يوم التقينا، وتجنبت الشرب ليلتها لكي لا أبيت بجانب الطريق، وتكونين قد تجنبت الوقوع في شراك علاقة غرام تسيء لك أكثر.

أريد منك وعداً يا زوهرة، ألا تتوقفي عند ذكراي، أن تعيشي حياتك وتبحثي عن السعادة، واعلمي أن سعادتي وراحتي هي أن أعلم أنك عثرتِ على الرجل الذي يستحقك.

أرجوك اسألي عن حال أمي كلما سنحت لك الفرصة، فهي تعلم درجة حبي لك، وستكون سعيدة إذا شاهدت حبيبة ابنها الوحيدة والأبدية سعيدة.

تقبلي يا جبيبتي أحر القبلات مني.

حبيبك عبدو...)

توصلت بوصل الإرسال من موظفة الوكالة واتصلت بدكان القرية لكي يخبر زوهرة أو والدتي بالأمر، وانطلقت في اتجاه بيت العجوز الأسيوية، لأكفر عن آخر ذنب ارتكبته.

15

وضعت أمام منزل العجوز الأسيوية الظرف الذي يحمل النقود، ورسالة اعتذار قصيرة عما بدر مني من أفعال حيوانية ذلك اليوم، ثم غادرت مسرعا، وإذا بي أتفاجأ بصوتها يناديني:

- بني... بني... انتظر أرجوك...

عانقتني العجوز بحرارة، كنت بحاجة إلى هذا العناق الشبيه بعناق أمي، بكت العجوز فوق كتفي وشكرتني كثيرا، لدرجة لم أستطع منع نفسي من البكاء، ودعت العجوز واتجهت إلى مصيري...

- أشكرك يا بني، فقد كنت في حاجة إلى هاته النقود...

لم أرد عليها، كان لساني مغلولا. وحدها دموعي كانت تحكي رسائل اعتذار للعجوز، وضعت المسكينة قبلة على جبيني، وطلبت من الرب أن يوفقني.

عدت إلى "كريستين"، أخذت بعض الأوراق وحاولت أن أدون كل ما تعرضت له طيلة رحلتي من القرية إلى هنا.

أمضيت ثلاثة أيام أدون فيها الأحداث. اتصل خالد مرارا وتكرارا يسأل عني فكانت "كريستين" تخبره في كل مرة أنني خارج البيت،

أو أنني في مكان ما وأنها ستطلب مني الإتصال به عند عودتي. كنت أبكي بحرقة كلما وصلت إلى جزء أذكر فيه أمي.

اتصلت بخالد لأتاكد من أنه لم يعلم بعد بأمر النقود، طلبت منه أن يمنحني عطلة يومين، إلى حين التخلص من بعض الأفكار السلبية التي من شأنها عرقلة عملنا. تفهم الأمر وسمح لي بذلك.

بكت "كريستين" كثيرا عندما علمت أنني قررت إنهاء حياتي، حاولت منعي واقترحت علي أن تقرضني مالا أبني به مستقبلي، لكن المشكل لم يكن ماديا بل أكبر من ذلك. أخبرتها أنني لم أعد أشعر بأي شيء يربطني بالحياة، بل أشعر بانتمائي إلى الموت أكثر، إلى الهُناك، ووجودي هنا تحصيل حاصل...

احترمت "كريستين" رغبتي في الموت. هنا يحترم اختيار الإنسان، حتى وإن كان إنهاء حياته، في وطني يحرمونك من متعة الحياة، ينبذونك، يهمشونك، ويمنعونك أيضا من الموت لتنهي الأمر، كأنهم يتلذذون بمشاهدتك تتعذب، إرضاء لساديتهم.

16

عزيزي القارئ، إذا كنت تحمل بين يديك هاته السيرة وتنقلتَ بين أجزائها بحرية، فاعلم أن الفضل كله يعود إلى ''كريستين'' التي وعدتني بتلبية آخر طلب بعد مفاوضات طويلة، محاولة أن تثنيني عن فعلتي، وفي الأخير احترمتْ اختياري، لم تستطع كبح دموعها، وهي تتأملني للمرة الأخيرة. في هذا الوقت سأكون قد رميت بنفسي من فوق جسر البوابة الذهبية، واضعا حدا لحياة شخص ما كان ليوجد في الأصل.

سأمر في طريقي على متجر لأشتري بدلة أنيقة وقنينة ويسكي. لا أريد أن أموت وأنا في حالة رثة. القنينة من أجل سكبها في النهر قبل أن أقفز كي لا يشعر النهر بذنب قتل إنسان، ولكي تجد الأسماك شرابا تشربه عند التهام لحمي. طلبت من ''كريستين'' أن تحتفظ بنسخة من هاته السيرة، وأن ترسل نسخة إلى زوهرة وأمي، ونسخة أخرى كي يعرف خالد سبب سرقتي لأمواله، ومهما كان سيبقى شخصا قدم لي العون عندما كنت في حاجة له بما استطاع. كما طلبت منها أن تقوم بنشر نسخة لتصل إلى أيادي أولئك المتشائمين،

لكي يعلموا أن الشؤم قد انتحر، وأن يشمروا عن سواعدهم للعمل، فلا تعاسة ولا شؤم بعدي. على أي شاب يريد أن يغادر البلاد أن يعيد التفكير جيدا. الغربة ليست أرض عجائب وسماؤها لا تمطر ذهبا. فكن رجلا في وطنك قبل أن تفكر في الرحيل. وإن لم تكن فلن تكون حتى لو وضعت في الجنة.

وليعلم القرويون بآيت إيكو أنني أحبهم بالرغم من كرههم لي. وسأموت ليعيشوا في سلام وسعادة إلى الأبد... ولكي تعود الأمطار والخيرات إلى القرية، فشكرا لكم، لأنكم أول من وضع المسمار في نعشي، وشكرا لوطني لأنه لم يستطع تحمل جثة ميتة تدفن فيه... وشكرا "كريستين"...